مكية وهي سبع وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ «تبارك» كلمة تعظيم، لم تستعمل إلا لله وحده، والمستعملُ الماضي فحسب، والبركة: النماءُ والزيادةُ، حسية كانت أو معنوية، وتأتي بمعنى التمجيد والتعظيم، والفرقان مصدر فَرَق بين الشيئين، سُمي به القرآنُ لفرقه بين الحقِّ والباطل، أي تعالى وتعاظم وتكاثر خير الله، الذي نزَّل القرآن العظيم، الفارق بين الحق والباطل ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ لِيَكُونَ ﴾ محمد ﷺ نبياً ورسولاً ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ من الثقلين يتناول جميع المكلفين إلى يوم القيامة ﴿ نَذِيرًا ﴾ أي منذراً بالقرآن للإنس والجن، ومخوّفاً لهم من عذاب الله، والإنذارُ: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبارٌ فيه سرور.

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي المالك لجميع ما في السموات والأرض ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي وليس له ولد كما زعم اليهودُ، والنصارى، والمشركون حيث جعلوا الملائكة بنات الله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي في ملك السموات والأرض، وإفراده بالذكر، للتصريح ببطلان زعم القائلين بتعدد الآلهة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي أحدث كل موجود، إحداثاً جارياً على سنن التقدير، حسبما اقتضته إرادته ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي هيأه لما أراد به ﴿تَقْدِيرًا﴾ بديعاً لا يُقادر قدره، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك، والنظر والتدبر في أمور المعاش، واستنباط الصنائع المتنوعة، وهكذا أحوال سائر الأنواع.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ الإضمار من غير ذكرهم، للثقة بمعرفتهم بدلالة ما قبله من نفي الشريك أي اتخذ المشركون لأنفسهم آلهة متجاوزين الله الذي ذكر بعض شؤونه الجليلة ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء أصلاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كسائر المخلوقات وعبدتهم، ينحتونهم ويصورونهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ بيان لما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم، فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع الضر، وجلب النفع في الجملة كالحيوان، وهؤلاء لا يقدرون دفع الضر، ولا جلب النفع لأنفسهم، فكيف يملكون شيئاً منها لغيرهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي لا يقدرون على إماتة أحد ولا إحياء أحد، والإلٰه يجب أن يكون قادراً على ذلك، وفيه إيذان بغاية جهلهم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ ﴾ شروع في حكاية أباطيلهم، أي وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ ﴾ أي على اختلاقه ﴿ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ ﴾ يعنون اليهود، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الماضية، وهو يعبّر عنها بتعليمهم ﴿ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا ﴾ والتنوين للتفخيم، أي جاؤوا بما قالوا ظلماً هائلاً، حيث جعلوا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكاً مفترىً من قبل البشر، وهو من جهة نظمه الرائق، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته، من جهة اشتماله على الحِكَم الخفية، والأحكام المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية، والأمور الغيبية بحيث لا تناله عقول البشر ﴿ وَزُورٗا ﴾ أي كذباً كبيراً لا يبلغ غايتها حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو بريء منه.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً إنه خرافات الأمم السابقين ﴿ ٱكۡتَتَبَهَا ﴾ أي طلب أن تكتب له ﴿ فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ ﴾ أي تُقرأ عليه ليحفظها من أفواه من يُمليها عليه، لكونه أمياً لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة ﴿ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ أي دائماً صباحاً ومساء، انظر إلى هذه الرتبة من الجرأة قاتلهم الله أنى يؤفكون.

﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦ ﴾.

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي قل رداً عليهم، وتحقيقاً للحق، إنه أنزله من يعلم السرَّ، فلو كذب عليه لانتقم منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ﴾[1] فهذا القرآن الكريم المعجز في بيانه، أنزله الذي لا يغيب عن علمه شيء، وأودع فيه فنون الحِكَم والأسرار، على وجهٍ بديع، لا تحوم حوله الشبهات، وقد جعلتموه إفكاً مفترىً من قبيل الأساطير، واستوجبتم أن يصبَّ عليكم الله سوط العذاب، لكنه تعالى رحيم بالعباد، ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي مستمر على المغفرة والرحمة، فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون في حقه ﷺ.

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾؟ شروع في حكاية جناياتهم المتعلقة بخصوصية الرسول ﷺ، و«ما» استفهامية، بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، وفي هذا تصغيرٌ لشأنه ﷺ، وتسميتُهم «رسولاً» بطريق الاستهزاء ﴿ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي أيُّ شيء حصل لهذا الذي يدَّعي الرسالة، حال كونه يأكل الطعام كما نأكل؟ ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾؟ لابتغاء الأرزاق كما نفعله، يعنون أنه إن صحَّ ما يدعيه، فما باله لم يخالف حالُه حالَنا؟ وهل هو إلا لعَمَهِهم، وركاكة عقولهم، وقصور أنظارهم؟ فإن تمييز الرسل عمن عداهم، ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور روحانية، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي على صورته وهيئته ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ تنزُّلٌ منهم من اقتراح أن

(١) سورة الحاقة، آية: ٤٤ ـ ٤٥.

يكون مَلَكاً، مستغنياً عن الأكل والشرب، إلى اقتراح أن يكون معه مَلَكٌ يصدِّقه، ويكون عوناً له في الإنذار.

﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ تنزُّلٌ آخر إلى اقتراح أن يُلقى إليه من السماء كنز، يستظهر به، ولا يحتاج إلى طلب المعاش، ويكون دليلاً إلى صدقه ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ ﴾ تنزل ثالث إلى اقتراح أيسر منه، وأقرب من الوقوع، وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ هم القائلون الأولون، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تسجيلاً عليهم بالظلم أي قالوا للمؤمنين ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ قد سُحر فغلب على عقله.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترؤوا على التفوه بها، أي انظر يا محمد كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل السخيفة، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا تلك الصفات البعيدة من الوقوع ﴿ فَضَلُّوا۟ ﴾ عن طريق الهدى والحق، حيث لم يأتوا بشيء يمكن صدوره عمن له أدنى عقل وتمييز ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي فلا يجدون طريقاً موصلاً إلى الحق، بعد أن ضلوا عنه.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ ﴾ أي تكاثر وتزايد خير الله الذي ﴿ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ في الدنيا عاجلاً شيئاً ﴿ خَيْرًا ﴾ لك ﴿ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الذي اقترحوه من أن يكون لك جنة ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي لو شاء لأعطاك حدائق وبساتين تسير فيها الأنهار، لا جنة واحدة كما قالوا ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ أي قصوراً وبيوتاً مشيَّدة، وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين، للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل، واستغنائهما عن الجواب، لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة، وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير، فإن بعض الأنبياء قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكاً عظيماً، ولكنْ أخَّره للرسول ﷺ إلى الآخرة، لأنه خير وأبقى.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ ﴾ إضراب عن توبيخهم، بحكاية جناياتهم السابقة، أي بل كذَّبوا بالقيامة وبالحساب والجزاء، ولذلك أقدموا على السخرية والاستهزاء ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أي أعتدنا لهم ناراً عظيمة، شديدة الاشتعال، بسبب تكذيبهم بها.

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أي إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد، ونسبة الرؤية إليها، للإيذان بأن التغيظ والزفير منها، لهيجان غضبها عليهم، عند رؤيتها إياهم حقيقةً أو تمثيلاً، وقوله تعالى: ﴿ مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها، بصوت المغتاظ وزفيره، وهو صوت يُسمع من جوفه، هذا ويمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة، فترى وتتغيظ، وتزفر.

﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من جهتكم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي إلا فعل من يريد، أن يتقرب إلى الله، بالإيمان والطاعة، فصوَّر ذلك بصورة الأجر، من حيث إنه مقصود بالذات، شفقةً عليهم، وقيل: الاستثناء منقطع، أي لكنْ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فلْيفعل.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي اعتمد في جميع أمورك وأحوالك على ربك الواحد الأحد، الذي لا يموت، توكل عليه في الاستكفاء عن شرورهم، والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يُتوكل عليه، دون الأحياء الذين من شأنهم الموت، فإنهم إذا ماتوا، ضاعَ من توكَّل عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾ ونزهه عن صفات النقصان، مثنياً عليه بنعوت الكمال، طلباً لمزيد الإنعام، أي قل سبحان الله وبحمده ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ أي حسبك أن الله تعالى مطّلع على أعمال العباد، ما ظهر منها وما بطن ﴿خَبِيرًا﴾ أي مطلعاً عليها بحيث لا يخفى عليه شيء منها، فيجزيهم جزاءً وافياً، فلا عليك إن آمنوا، أو كفروا.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تعطيل، وُصف تعالى بصفة الفعلية، بعد وصفه بالأبدية، لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مرفوع على المدح، أي هو الرحمنُ، وهو في الحقيقة وصف للحي المذكور

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ هذا هو النوع الخامس من آثار القدرة والوحدانية، والمراد بالماء: النطفةُ، أي هو تعالى بقدرته خلق من النطفة إنساناً سميعاً بَصيراً ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ ﴾ أي قسمه قسمين: ذوي نسب أي ذكوراً ينتسب إليهم، وذوات صهرٍ أي إناثاً يُصاهرُ بهنَّ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[1] ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ أي مبالغاً في القدرة، حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة، بشراً ذا أعضاء مختلفة، وطباع متباعدة، وربما يخلق من نطفة واحدة، توأمين: ذكراً، وأنثى.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الذي شأنه ما ذكر ﴿ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ ﴾ أي ما ليس من شأنه النفعُ والضر، وهو الأصنام أو كل ما يعبد من دونه تعالى ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ ﴾ معصية ﴿ رَبِّهِۦ ﴾ الذي ذُكرت آثارُ ربوبيته ﴿ ظَهِيرًا ﴾ يظاهر الشيطان بالشرك والعصيان، أو يظاهر بعضهم بعضاً، على إطفاء نور الله تعالى.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين.

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

---

(١) سورة القيامة، آية: ٣٩.

﴿كَبِيرًا﴾ فإن دعوة كل العالمين، على الوجه المذكور، جهاد كبير لا يُقادر قدره، وقيل: المرادُ بالجهاد: القتالُ، والأقرب الأول، لأن السورة مكية، والأمر بالقتال ورد بعد الهجرة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ هذا هو النوع الرابع من أدلة القدرة والوحدانية، أي خلاَّهما متجاورَيْنِ متلاصقَيْن، بحيث لا يتمازجان، من مَرَج دابته إذا خلاَّها، وأصلُ المرج: الإرسالُ والخلطُ ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش لغاية عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزاً غير مرئي من قدرته تعالى، وهما في الظاهر مختلطان، وفي الحقيقة منفصلان ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وتنافراً مفرطاً، كأنَّ كلاً منهما يتعوَّذ من الآخر، ووجه الاستدلال ههنا أن العذوبة والملوحة، إن كانت بطبيعة الأرض أو الماء، فلا بد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك، فلا بدَّ من قادر حكيم، يخصُّ كل واحد من الأجسام، بصفة خاصة معينة، وقيل: المراد بالبحر العذب: النهرُ العظيم، كالنيل والشط، وبالمالح: البحرُ الكبير، وبالبرزخ ما بينهما من الأرض، وهو الأظهر[1].

(١) قال الحافظ ابن كثير: ومعنى الآية أنه تعالى خلق الماءين: الحلو، والمالح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، والمالحُ كالبحار الكبار التي لا تجري، وجعل بين العذب والمالح حاجزاً، وهو اليابس من الأرض، ومانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، ا.هـ. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، أقول: وهو الأظهر في معنى الآية الكريمة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فراتٌ سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ فالمراد بالعذب الفرات مياه الأنهار، لأنه ليس هناك بحار حلوة، وهذا من باب التغليب حيث أطلق على النهر اسم البحر، والله أعلم.

غيرها، والأول أظهر ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أي أبى أكثر البشر، ممن سَلَف وخلف ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي لم يفعلوا إلاَّ كفران النعمة، وقلة الاكتراث لها عن زيد بن خالد الجُهَني أنه قال: «صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، في إثْر سماءٍ من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم!! قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافر، فأمَّا من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي، وكافر بالكواكب، وأمَّا من قال: مُطِرْنا بَنْوء كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[1].

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١﴾.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ أي نبياً يُنذر أهلها، فيخفّف عليك أعباء النبوة، ولكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الأمر عليك، حسبما ينطق قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إجلالاً لك، وتفضيلاً لك على سائر الرسل.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم، وكما آثرتك على جميع الأنبياء، فآثر رضائي على جميع الأهواء، وقابل ذلك بالثبات، والاجتهاد في الدعوة، وإظهار الحق، أريد بهذا تهييجه ﷺ وتهييج المؤمنين، كأنه تعالى نهى الرسول الله عن المداراة معهم، لما أنه ﷺ كان يود أن يدخلوا في الإسلام، ويجتهد في ذلك بتأليف قلوبهم ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، بتلاوة ما فيه من الزواجر والمواعظ ﴿جِهَادٗا

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء وفي الصلاة ٢/ ٢٧٧، ومسلم في الإيمان رقم ٧١، وأبو داود في الطب رقم ٣٩٠٦، وانظر جامع الأصول ١١/ ٥٧٦.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ ﴾ أي مبشرة بنزول المطر غوثاً للعباد ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ أي وأنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح، ماءً طاهراً مطهِّراً تشربون منه، وتتطهرون به، والطهورُ: هو الطاهرُ في نفسه، المطهِّرُ لغيره، ووصفُ الماء به، إشعارٌ بتمام النعمة، فإنَّ الماء الطهور، أهنأ وأنفع، هذا هو النوع الثالث من آثار الوحدانية والقدرة.

﴿ لِّنُحْىِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ لِّنُحْىِۦَ بِهِۦ ﴾ أي بما أنزلناه من الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ بإنبات النبات، وإخراج الزرع والثمار، والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد، فالمراد به القطعة من الأرض، عامرة كانت أو غامرة ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ ﴾ أي ذلك الماء الطهور، عند جريانه في الأودية، واجتماعه في المنابع والآبار ﴿ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ أي أهل البوادي، الذين يعيشون بالحياض، والمراد بالأناسيّ البشر الكثيرين.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ ﴾ أي وبالله لقد كررنا هذا القول في القرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الناس، من المتقدمين والمتأخرين ﴿ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ ليتفكروا ويعرفوا بذلك، كمال قدرته تعالى، ويقوموا بشكر نعمه، وقيل: الضمير للمطر، وتصريفُه بينهم: إنزاله في بعض البلاد دون

عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي جعلناها علامة، يُستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله، ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس، لما عرف الظل، والأشياء تُعرفُ بأضدادها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ وفي بيان كون القبض والمد، مزيد دلالة على الحكمة الربانية، وقوله تعالى: ﴿إلينا﴾ للتنصيص على كون مرجعه إليه تعالى، كما أن حدوثه منه تعالى ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي على مهل، قليلاً قليلاً، لا دفعة واحدة، لئلا تختل المصالح، وتعدم المنافع.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى، ونعمته الفائضة على الخلق، وتلوين الخطاب لتوفية المقام حقَّ الامتنان، وهذا هو النوع الثاني من دلائل القدرة الباهرة، وآثار عظمة الله ووحدانيته، في الإتقان والإبداع ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي جعل لكم الليل كاللباس، يستركم بظلامه، كما يستركم اللباس ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحة للأبدان، بقطع المشاغل، وأصل السُّبات: القطعُ أي وجعل النوم الذي يقع في الليل، قاطعاً للأعمال الشاقة التي يكابدها الإنسان في النهار، وعبَّر عنه بالسُّبات، الذي هو الموت، لما بينهما من المشابهة، في انقطاع أحكام الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهارِ﴾[1] ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي زمان انتشار، ينتشر فيه الناس للمعاش، وفي الآية إشارة إلى أن النوم واليقظة، أنموذج للموت، والبعث.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٠.

أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ، فتعتني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم؟ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي ما هم في عدم الانتفاع، بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلا كالبهائم التي هي مَثَلٌ في الغفلة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي بل هم أبشع حالاً، وأسوأ مآلاً من البهائم والدواب، لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها، وتعرف من يحسن إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وهم لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم، فهم أضلُّ من الحيوانات.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى صنيع ربك، وإبداع خلقه؟ وهو بيان لبعض دلائل التوحيد، والخطابُ للرسول ﷺ في الظاهر، وعامٌّ في المعنى، لأن المقصود بيانُ نعم الله تعالى، وجميعُ المكلفين مشترك فيه، أي ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى؟ وحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى، لأن تأثير قدرة الله تعالى غير مرئيّ ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي كيف بسط تعالى الظلَّ، ومدَّه وقت النهار، ليستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس ووهجها؟ إذ لولا الظلُّ في النهار، لأحرقت الشمس الإنسان والثمار، وكدَّرت حياة الإنسان، ولكنه تعالى رحيم بالعباد، يهيىء لهم سبل الراحة، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ الجملة اعترضت بين المعطوفين، للتنبيه من أول الأمر، على أنه لا مدخل فيما ذُكر للأسباب العادية، وإنما المؤثر فيه المشيئة الإلهية، أي لو شاء سكونه لجعله ثابتاً في مكان لا يزول ولا يتحول عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، حتى يستفيد البشر والزرع من الظل والشمس، وحاصله بيان كمال قدرته تعالى، بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه سبحانه بالذات ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ

ضلالهم ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي لولا أن ثبتنا عليها، وهذا اعتراف منهم بأنه ﷺ قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة، وإقامة الحجة، إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم، والآية تدلُّ على أنهم كانوا كالمجانين، لأنهم استهزؤوا به ﷺ أولاً، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا بقوة الحجة، وكمال العقل ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم، أي سوف يعلمون في الآخرة ﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؟ أي من هو أخطأ طريقاً، وأضلُّ ديناً، أهم أم محمد ﷺ؟ وفيه من الوعيد، والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم، وإن أمهلهم، فإن عاقبة الكفر الوبال.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؟ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم، فقد كان الواحد منهم يعبد حجراً، ينحته بيده ويطيّبه ويعبده، فإذا رأى حجراً أحسن منه، هجر إلهه ورمى به وعبد الثاني، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؟ إنكار واستبعاد لكونه ﷺ حفيظاً عليه، بزجره عما هو عليه من الضلالة، وإرشاده إلى الحق، كأنه قيل: أبعدما شاهدت من غلوّه في طاعة الهوى، تقسرهُ على الإيمان؟ وهذا تيئيس من إيمانهم، وإرشاد للرسول ﷺ ألاَّ يتأسف عليهم، فإنهم في الجهل بالمنافع، وقلة النظر في العواقب، مثل البهائم التي لا تدرك شيئاً من مصالحها.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ﴾؟ إضراب وانتقال عن إنكار المذكور، إلى إنكار أنهم ممن يسمع أو يعقل، أي بل أتحسب أن

﴿ٱلسَّوۡءِۚ﴾ بالحجارة، وهي قرى قوم لوط، وكانت خمس قرى، ما نجت منها واحدة ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾ توبيخ لهم على تركهم التذكر، عند مشاهدة ما يوجبه، أي أفلم يكونوا يرونها في مرورهم، ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب؟ ﴿بَل كَانُواْ﴾ إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم للمهلكين ﴿لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ أي إنهم لا يعتبرون ولا يتعظون، لأنهم كانوا ينكرون النشور، المستتبع للجزاء الأخروي، فكيف يتذكرون ويتعظون بما شاهدوه من آثار الهلاك؟ ولذلك مرت بهم مدن المهلكين، كما مرت بهم ركابهم!!.

﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد، ما يتخذونك إلا مهزوءً به، يسخرون منك ويهزؤون، ويقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟ أي يستهزئون بك يا محمد قائلين: أهذا الذي أرسله الله رسولاً؟ والإشارة للاستحقار، وذكر الرسول في معرض التسليم، مع كونهم في غاية النكير لبعثته ﷺ، إنما جاء بطريق التهكم والاستهزاء وذلك جهل عظيم منهم، وسخافة وحماقة، فإنهم يستحقون أن يُهزأ بهم، ثم إنهم لوقاحتهم قلبوا القضية، واستهزؤوا بالرسول ﷺ.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِن كَادَ﴾ إنْ مخفَّفة من «إنَّ» وضمير الشأن محذوف، أي إن الحال أنه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها، صرفاً كلياً، بحيث يبعدنا عنها، لا عن عبادتها فقط، والعدول إلى الإضلال لغاية

كلٌّ من شاهدها، أو سمعها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي لهم، والإظهار للإيذان بتجاوزهم الحدَّ، في الكفر والتكذيب ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب الآخرة، ويحتمل العذاب الدنيوي والأخروي، على جميع الظالمين، فيدخل في زمرتهم قريش.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ هم قوم يعبدون الأصنام، بعث الله إليهم شعيباً عليه السلام، فكذَّبوه، فهم حول الرسِّ ـ وهي البئر التي لم تُطْوَ بعد ـ إذ انهارت فخسف بهم وبديارهم وأهلكوا بسبب كفرهم ﴿وَقُرُونًۢا﴾ أي أهل قرون ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين تلك الأمم الطاغية المكذبة ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلم مقدارها إلا العليم الخبير أهلكناهم.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد منهم ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ﴾ أي بيَّنا لهم القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر، فلم نهلكهم إلاّ بعد الإنذار ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد منهم ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ عجيباً هائلاً، لما أنهم لم يتأثروا بذلك، وتمادوا على ما هم عليه من الكفران والعدوان، وأصل التتبير: التفتيتُ، ومنه التِّبْرُ لفُتات الذهب والفضة.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهداتهم لآثار هلاك بعض الأمم المتبّرة، وعدم اتعاظهم بها، أي وبالله لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام، على القرية التي ﴿أُمْطِرَتْ﴾ أي أُهلكت ﴿مَطَرَ

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بعد الحديث عن التوحيد، والنبوة، وأحوال القيامة، ذكر تعالى القصص على السُنَّة المعلومة في طريقة القرآن لتأكيد ما مر من التسلية، والوعد بالهداية والنصر، كأنه قيل: لستَ يا رسول الله بأول من أرسلناه فكُذِّب، وآتيناه الآيات فرُدَّ، فقد آتينا موسى التوراة، وقوَّيناه بأخيه، ومع ذلك فقد كُذِّب ورُدَّ، واللامُ جوابُ القسم، أي وبالله لقد آتينا موسى الكتاب يعني التوراة ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ أي وأعنَّاه بأخيه هارون فأرسلناه معه وزيراً، يؤازره ويعاونه في تبليغ الدعوة.

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْنَا ﴾ لهما حينئذ ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي اذهبا إلى فرعون الطاغية وقومه المكذبين، بالآيات الباهرات، هي المعجزات التسع ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم، فاقتصر على ذكر أولها وآخرها، لأن المقصود من القصة، وهو إلزام الحجة، ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم لهم.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي ودمَّرنا قوم نوح ﴿ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان، لما كذَّبوا رسولهم نوحاً، وجعلناهم عبرة لمن يعتبر، وإنما قال (الرسل) بالجمع، مع أنهم كذبوا نوحاً وحده، لأن في تكذيبه تكذيبهم جميعاً، لاتفاقهم على التوحيد ﴿ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ استئناف مبيِّنٌ لكيفية تدميرهم ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ أي جعلنا قصتهم ﴿ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ عظيمة يعتبر بها

عليهم إجراء أحكامها ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي فصّلناه تفصيلاً بديعاً، وبيّناه للناس على أكمل الوجوه.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي لا يأتونك بكلام عجيب، هو مَثَلٌ في البطلان، يريدون به القدح في القرآن، وفي حقك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ في مقابلته بالجواب الحق، الذي يحسم الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُه فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1] ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي أنه في غاية ما يكون من الحسن في حد ذاته، فهو أحسن بياناً وتفصيلاً من كل كلام قرؤوه.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ صفة للذين أوردوا هذه الاقتراحات على سبيل التعنت أي هؤلاء هم المجرمون، الذين يساقون ويسحبون إلى النار على وجوههم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي هم شرٌّ منزلاً ومصيراً، وأخطأ ديناً وطريقاً، لأنهم على الباطل والضلال، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾[2].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٠.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ، وحملٌ له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء، أي كما جعلنا لك أعداء من المشركين، كذلك جعلنا لكل نبي عدواً من مجرمي قومهم، فاصبرْ كما صبروا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وعد كريم له ﷺ بالظفر، والنصر على أعدائه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ القائلون هم مشركو قريش، وإيرادهم بعنوان الكفر، لذمهم به، وللإشعار بعلة الحكم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي هلاَّ أنزل كل القرآن على محمد ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؟ وبطلانُ هذه الكلمة الحمقاء، مما لا يكاد يخفى على أحد، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به، لا يختلف بنزوله جملة، أو متفرقاً، فبيِّنةُ صحته، وآية كونه من عند الله، نظمُه المعجز، الباقي على مر الدهور، ومن ضرورة تغير بعضها، تغير ما يطابقها، على أنَّ فيه فوائد جمة، قد أشير إلى بعض منها بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم، وبيان الحكمة في التدريج، أي مثل ذلك التنزيل المفرَّق، الذي قدحوا فيه، نزلناه تنزيلاً، ليتقوَّى به فؤادُك على تحمل نزوله، ثم إن فيه تيسير الحفظ، وفهمِ المعاني، وضبط الأحكام، والوقوف على تفاصيل ما روعي فيها من الحِكَم والمصالح، على أنها منوطة بأسبابها، وكذلك عامة ما ورد في القرآن المجيد، من الأخبار وغيرها، متعلقة بأمور حادثة من الأقاويل والمقترحات، ومنها أنها لو نزلت دفعة واحدة على الخلق، يثقل

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٤.

أي والله لقد أضلني عن ذكر الله وعن الشهادة ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ وتمكنت منه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي مبالغاً في الخذلان، يصاحبه ويواليه حتى يوصله إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه، وحكم الآية عام، في كل متحابين اجتمعا على معصية الله، عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلُ الجليس الصالح، والجليس السوء، كحاملِ المسكِ، ونافخ الكِير، فحامل المسك إما أن يُحْذِيك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكِيرِ إمَّا أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[1] وعن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «المرء على دين خليله، فَلينظر أحدكم من يخالل»[2].

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ اعتراض مسوقٌ لاستعظام ما قالوه، وبيان ما يحيق بهم في الآخرة، وإيراده ﷺ بعنوان الرسالة، لتحقيق الحق، والرد على نحورهم حيث كان ما حكي عنه قد جافى رسالته ﷺ، أي قالوا كيت وكيت وقال الرسول إثر ما شاهد منهم غاية العتو، بطريق البث إلى ربه عزَّ وجلَّ ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ الذين حكي عنهم ما حكي من الشنائع ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي متروكاً بالكلية، ولم يؤمنوا به، ولم يتأثروا بوعيده.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب بيع المسك ٤/ ٢٧١ ومسلم في البر رقم ٢٦٢٨ باب استحباب مجالسة الصالحين.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٣٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٧٩ وإسناده حسن.

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ عضُّ اليدين والأنامل ونحوها، كناياتٌ عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم «عقبة بن أبي مُعَيْط» وكان يكثر المجالسة للنبي ﷺ، فدعاه يوماً إلى ضيافته، فأبى ﷺ أن يأكل من طعامه، حتى ينطق بالشهادتين، ففعل، وكان «أُبيُّ بن خَلف» صديقه، فعاتبه، وقال: وجهي من وجهك حرامٌ إلا أن ترجع إلى دينك فارتد، وإما أن يُراد جنس الظالم وهو داخلٌ فيه، والمقصودُ الزَّجرُ للكل عن الظلم ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ﴾ «يا» للتنبيه أو المنادى محذوف، أي يا هؤلاء ليتني ﴿ ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ أي طريقاً واحداً منجياً وهو طريق الحق، ولم أكن ضالاً.

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يريد من أضله في الدنيا، فإن أريد بالظالم «عقبة» ففلان كناية عن «أُبيِّ بن خَلَف» وإن أريد به الجنس، فهو كناية عن كل ضالٍ، قالت الرافضة: هذا الظالم هو رجل بعينه، وإن المسلمين غيَّروا اسمه وكتموه، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله، ولأن المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم، وذلك لا يحصل إلاَّ بالعموم، وقول الرافضة لا يتم إلا بالطعن في القرآن، وإثبات أنه غُيِّر، ولا نزاع أنه كفر. وكذا المراد بقوله (فلاناً) ليس شخصاً واحداً، بل كل من أطيع في معصية الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾[1].

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ ﴾ الآية بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته،

---

(١) سورة النبأ، آية: ٤٠.

على طريق المقارنة والتشبيه لحال الفريقين، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ أي تتفتَّح، وأصله تتشقق ﴿ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي بسبب طلوع الغمام منها، هو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ﴾[1] ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ عجيباً بصحائف أعمال العباد.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ أي السلطنة القاهرة، والاستيلاء العام ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ ثابت ﴿لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ فائدة التقييد أن ثبوت الملك له تعالى خاصة يومئذ فتخضع له الملوك وتذل له الجبابرة، أما في الدنيا فيكون لغير الله تعالى تصرُّف صوري في الجملة ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم الرهيب ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي شديد الهمِّ والبلاء، وأما للمؤمنين فيكون عليهم بفضل الله ورحمته هيِّناً يسيراً[2]، كما قال تعالى: ﴿عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٠.

(٢) كما قال المصطفى ﷺ عن يوم القيامة، حين سُئل ما أطولَ هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفَّف على المؤمن، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة، يصليها في الدنيا» رواه أحمد.

بالإجرام مع الكفر، والمراد بالمجرمين هنا الكفار، الذين بلغوا غاية الإجرام، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند مشاهدتهم ما يحيق بهم ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وهي كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدوٍّ موفور، أو هجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة، حيث يطلبون من الله أن يمنع عنهم المكروه، فكأن المعنى: نسأل الله أن يمنع ذلك عنَّا منعاً ويحجره عنَّا حجراً، يعني أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم، وفزعوا منهم، وقالوا ما كانوا يقولونه، وقيل: تقولها الملائكة إقناطاً لهم، بمعنى: حراماً محرماً عليكم العفو والغفران، والجنةُ والرضوان، والأول أظهر.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ بيان لحال ما يعملونه في الدنيا، من مكارمهم، كقِرَى الضيف، وصلة الرحم، بتمثيل حالهم وحال أعمالهم، بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ديارهم وأموالهم فأقبل عليها بالإفساد، والتحريق، بحيث لم يدع لها عيناً، ولا أثراً، أي عمدنا إليها وأبطلناها بالكلية، والهباءُ: شبْه غبار، يُرى في شعاع الشمس، ومنثور صفته أي متفرق، أي جعلنا أعمالهم الصالحة كالغبار المنثور في الجو، شبَّه تعالى أعمالهم المحبَطَة، في الحقارة والضَّيَاع بالغبار المتطاير في الجو، لأنهم ما عملوها لوجه الله.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هم المؤمنون الذين وعدهم الله جنة الخلد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ المستَقرُّ: المكان الذي يستقر فيه أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ المقيلُ: المكانُ الذي يُؤوىٰ إليه للاستراحة، سُمّيت بذلك، لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً، ولا نوم في الجنة، ولكنه سمى مكان استراحتهم مقيلاً،

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ﴾ شروعٌ في حكاية بعض آخر، من أقاويلهم الباطلة، وبيان بطلانها، ووضع الموصول موضع الضمير، للتنبيه على أن مثل هذا القول لا يصدر عمن يعتقد المصير إلى الله عزَّ وجل ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي الرجوع إليه تعالى بالبعث أي وقال الذين لا يتوقعون الرجوع أصلاً إلينا، والرجاء بمعنى الخوف أي لا يخافون البعث ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي هلاَّ أُنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد ﷺ ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ أي نشاهد الله جلَّ وعلا فيخبرنا بأن محمداً رسوله، وكلا القولين ناشىءٌ عن غاية غلوهم، في المكابرة والعتوِّ ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي في شأنها، حتى اجترؤوا على التفوه، بمثل هذه العظيمة ﴿ وَعَتَوْ ﴾ أي تجاوزوا الحدَّ والظلم ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ أي بالغاً أقصى غايته، حيث أمَّلوا نيل مرتبة المفاوضة الإلٰهية، من غير توسُّطِ الرسول أو المَلَك، كما قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾؟ ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات، فذهبوا في الاقتراح كل مذهب، وفيه الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والعتوُّ والاستكبارُ لا يثبت، إلاَّ إذا طلبه الإنسان على سبيل التعنت، ومما يدل عليه أن موسى عليه السلام طلب الرؤية، وما وصفه الله تعالى بالاستكبار، والعتو، لأنه سألها شوقاً، وهؤلاء طلبوها تعنتاً واستهزاءً، ولذا وصفهم بذلك.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ عند الموت، أو يوم القيامة ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي لا يبشر يومئذ المجرمون، والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرى، و﴿المجرمين﴾ وضع موضع الضمير، تسجيلاً عليهم

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ جواب عن قولهم ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ والمعنى: ما أرسلنا أحداً قبلك من المرسلين، إلا آكلين وماشين، فلم يكن ذلك منافياً لرسالتهم ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أي بعض كفار الأمم ﴿لِبَعْضٍ﴾ أي بعض الرسل ﴿فِتْنَةً﴾ أي ابتلاءً ومحنة، كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة، من الأمم الكافرة، فتنة لرسولها المبعوث إليها، وإنما لم يصرح بذلك تعويلاً على شهادة الحال، أما تعميم الخطاب لجميع المكلفين فيأباه قوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؟ فإنه غاية للجعل المذكور، وليس ابتلاء كل أحد مغيًا بالصبر، فالمراد بهم الرسل[1]، فيحصل به تسليته ﷺ، فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا، على ابتلاء المرسلين بأممهم، لنعلم صبركم ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ وعد كريم، للرسول ﷺ بالأجر الجزيل، لصبره الجميل، مع مزيد تشريفٍ له.

---

(١) ما ذهب إليه المؤلف أن الفتنة خاصة بالرسل، وليست لجميع المكلفين، قول مرجوح، والأظهر ـ والله أعلم ـ أن الآية عامة لجميع الناس، وفي مقدمتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والمعنى: جعلنا بعضكم أيها الناس ابتلاءً ومحنة لبعض، ابتلى الله الغنيَّ بالفقير، والشريف بالوضيع، والصحيح الجسم بالسقيم، والضعيف بالقوي، وهكذا ليختبر صبر الناس، ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾؟ فالابتلاء عام لجميع الخلق، قال الحسن البصري: «يقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان» ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا ترجعون﴾ وقوله سبحانه: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾.

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تعجباً مما قيل لهم، لأنهم إما ملائكة، وإما أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء، أي تنزيهاً عن الأنداد ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ ﴾ أي ما صح وما استقام لنا ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ ﴾ أي متجاوزين إياك ﴿ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ نعبدهم، فما يحق لنا ولا لأحد من الخلق، أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك، فأنت ربنا وأنت سندنا ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ أي ما أضللناهم، ولكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم، ليعرفوا حقها ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي غفلوا عن ذكرك، وعن تذكر آلائك، والتدبر في آياتك ﴿ وَكَانُوا۟ ﴾ باختيارهم للأعمال السيئة ﴿ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ أي هالكين، مصدر وصف به القوم، كأنهم أصبحوا نفس الهلاك.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ أي فقال الله تعالى توبيخاً لهم: فقد كذَّبكم المعبودون أيها الكفرة ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي ما تملكون ﴿ صَرْفًا ﴾ دفعاً للعذاب عنكم، أي لا بالذات، ولا بالواسطة ﴿ وَلَا نَصْرًا ۚ ﴾ أي فرداً من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم، وفيه ضربٌ من التهكم، حيث كانوا يزعمون أن المعبودين يدفعون عنهم العذاب، وينصرونهم ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ أيها المكلفون كدأب هؤلاء، حيث ركبوا المكابرة والعناد، واستمروا على ما هم عليه من الفساد ﴿ نُذِقْهُ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ وهو عذاب النار.

الجنة ﴿لَهُمْ﴾ أي جزاءً لهم في وعد الله وحكمه، لأن ما وعد الله تعالى، فهو كائن لا محالة، فحكى تحقيقه ﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم حسبما مر من الوعد الكريم ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلون إليه.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ أي ما يشاؤونه من فنون الملاذ والمشتهيات، وأنواع النعم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ وفيه تنبيه على أن كلَّ المرادات، لا تحصل إلا في الجنة ﴿ خَٰلِدِينَ ﴾ دائمين أبداً، فإن قلت: قد يشتهي الإنسان شيئاً، وهو لا يحصل في الجنة، كأن يشتهي الولد ونحوه، قلت: إن الله تعالى يزيل ذلك الخاطر، عن أهل الجنة، ولعل كل فريق يقتنع بما أتيح له من الدرجات، ولا تمتد أعناقهم إلى فوق ذلك ﴿ كَانَ ﴾ الوعد المذكور ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي موعوداً حقيقياً بأن يسأل لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي اذكر لهم بعد التقريع يوم يحشرهم ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي يجمعهم ومعبوديهم والأصنام التي عبدت من دون الله ﴿ فَيَقُولُ ﴾ الله عزَّ وجلَّ للمعبودين تقريعاً للعبدة ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بأن دعوتموهم إلى عبادتكم؟ كما في قوله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين﴾؟ ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي ضلوا بأنفسهم، لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشد النصيح، وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسؤول عنه، ليبكِّت عبدتهم ويوبِّخهم على الإشراك.

﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ صفة لمكاناً مفيد لزيادة شدة عذابها، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء، حيث ضمَّ إلى العذاب الشديد الضيِّق، فإن الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، وهو السر في وصف الجنة بأنَّ عرضها السموات والأرض ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حال، أي إذا ألقوا مكاناً ضيقاً، حال كونهم مقرَّنين قد رُبطت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ﴾ في المكان الهائل ﴿ثُبُورًا﴾ أي يتمنون هلاكاً، وينادونه يا ثبوراه، تعالَ فهذا أوانك.

﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ على تقدير القول، أي يُقال لهم: لا تقتصروا على ثبورٍ واحد ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة، بل ادعوا مرَّات ومرَّات، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد، يستوجب تكرير الدعاء في كل وقت وحين.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تقريعاً لهم وتحسيراً على ما فاتهم ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي قل لهم؛ أذلك الذي ذُكر من السعير، الذي أُعِدَّ لمن كذَّب بالساعة، خيرٌ؟ (١) ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي وعدها الله للمتقين لربهم في الدنيا، وإضافة الجنة إلى الخلد، للتمييز عن جنات الدنيا ﴿كَانَتْ﴾ تلك

(١) ليس في العذاب والسعير شيء من الخير، وإنما ورد هذا بأسلوب السخرية والتهكم، وفي مثل هذا الموطن يحسن التقريع، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً، فتمرَّد وطغى، واستكبر عن قضاء الحاجة، فيضربه سيده ضرباً شديداً، ويقول له على سبيل التوبيخ: أهذا أطيب أم ذاك؟ فهذا سخرية واستهزاء بأولئك الأشقياء!!.

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ أي بتفاصيل ما ذُكر إجمالاً ﴿خَبِيرًا﴾ هو الله سبحانه وتعالى، الخبير بالأشياء، العالم بالحقائق، يطلعك على جلية الأمر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قالوه لأنهم كانوا لا يطلقونه على الله تعالى، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى، ولذلك قالوا ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؟ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له، من غير أن نعرف أن المسجود له ماذا؟ ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي زادهم الأمر بالسجود للرحمٰن استكباراً، ونفوراً عن الحق والإيمان، وهذا من شدة الطغيان، وهذا يشبه قول الطاغية فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وما ربُّ العالمين﴾؟ كأنه لا يعرف أن هناك خالقاً للبشر.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ هي البروج الاثني عشر، سميت به، وهي القصور العالية، لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة، وقال الحسن ومجاهد: البروجُ هي النجوم الكبار، كالزهرة والمشتري وعطارد

(١) هذا القول مروي عن مجاهد، ورجح بعض المفسرين أن المعنى: فاسأل عنه من هو خبيرٌ عارف برحمته وجلاله، والمراد به من عنده اطلاع على الكتب السماوية من أهل العلم، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ والله أعلم.

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ هي الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ مضيئاً بالليل، وهو البدر الساطع.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أي ذوي خلفة، يخلف كل منهما الآخر، أو بأن يتعاقبا يأتي هذا بعد هذا ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أي يتذكر آلاء الله تعالى، ويتفكر في بدايع صنعه، فيعلم أنه لا بد لها من صانع حكيم ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أو أراد أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[1] الآية رُوي أنه جاء رجلٌ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: فاتتني الصلاة الليلة، قال: أدركْ ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لمنْ أرَادَ أنْ يَذكَّر أَوْ أرَادَ شُكُوراً﴾[2]!!

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خُلَّص عباد الرحمن، وأحوالهم الدنيوية والأخروية، والإضافة للتشريف ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ

(١) سورة القصص، آية: ٧٣.

(٢) يروى أن عمر فعل هذا بنفسه، أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعتَ اليوم شيئاً لم تكن تفعله!! فقال: فاتني شيء من وردي ـ أي صلاتي ـ بالليل، فأحببتُ أن أقضيه، وتلا هذه الآية، ذكره الحافظ ابن كثير ٣/ ٣٣٦.

عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ بسكينة وتواضع، دون مَرَح واختيال، وهو مصدر وصف به مبالغة ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي السفهاء ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي قالوا قولاً يسلمون به من الأذية والإثم، والمراد به الإغضاءُ عن السفهاء، وتركُ مقابلتهم في الكلام، وهذا مستحسنٌ شرعاً، ومروءة وعقلاً.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ وتخصيصهم بالبيتوتة، لأن العبادة بالليل أحمد، وأبعد من الرياء، أي ساجدين لربهم وقائمين، يُحيون الليل كله، أو بعضه، وفي الحديث عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة، فكأنَّما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة، فكأنَّما صلى الليل كله»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في أعقاب صلاتهم، وفي عامة أوقاتهم ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي شراً دائماً، وهلاكاً لازماً، وفيه مدح لهم، ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق، واجتهادهم في عبادة الحق، يخافون العذاب، ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم، غير محتفلين بأعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[2].

---

(١) رواه مسلم في المساجد رقم ٦٥٦ وأبو داود في الصلاة رقم ٥٥٥ والترمذي في الصلاة أيضاً رقم ٢٣١ باب فضل صلاة العشاء والفجر بالجماعة.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٦٠.

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بئست جهنم منزلاً، ومكان إقامة لمن يدخلها ويسكنها.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ أي لم يجاوزوا حدَّ الكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾ أي ولم يضيِّقوا تضييق الشحيح، وقيل: الإسرافُ: هو الإنفاقُ في المعاصي، والتقتيرُ: منعُ الواجبات والقُرَب ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أي بين الإسراف والتقتير، وسطاً وعدلاً، سُمِّي قواماً لاستقامة الطرفين، وهو ما يقام به الحاجة، ولا يفضل عنها ولا ينقص، قيل لعالم: ما البناء الذي لا سَرَف فيه؟ قال: ما سَتَرك من الشمس والمطر، فقيل له: وما الطعام؟ قال ما سدَّ الجوعة، وقيل: ما اللباسُ؟ قال: ما ستر عورتك، ووقاكَ من البرد[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلهاً آخر ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي حرَّم قتلها ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بسبب الحقّ المزيل لحرمتها، كالقصاص، أو الزنى بعد الإحصان، أو الردة عن الإسلام، أو السعي في الأرض بالفساد ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ۚ ﴾ أي لا يفعلون

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شراً من بطنه، بحَسْب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإذا كان لا محالة ـ أي لا بدَّ ـ فاعلاً، فثُلثٌ لطعامه، وثُلثٌ لشَرَابِه، وثُلثٌ لِنَفسه» رواه الترمذي.

فاحشة الزنىٰ، ولا شيئاً من هذه القبائح التي جمعهن الكفرة، حيث كانوا مع إشراكهم مداومين على قتل النفس المحرمة، التي من جملتها الموؤودة، ومكبين على الزنا، لا يرعوون عنه أصلاً ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ وهو جزاء الإثم في الآخرة، كالوبال والنكال، وزناً ومعنىً، والأثامُ هو الإثم وجزاؤه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله: «أيُّ الذنبِ أكبرُ عند الله؟ قال: أن تدعو للهِ نِدّاً وهو خَلقك، قال: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعم معك!! قال: ثم أيٌّ؟ قال أن تزني بحليلة جارك، فأنزل الله تعالى تصديقاً له ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ...﴾[1] الآية.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿يُضَٰعَفْ﴾ بدل من «يَلْقَ» لاتحادهما في المعنى، إذ مضاعفة العذاب هي لقاء الآثام ﴿لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ أي في ذلك العذاب المضاعف ﴿مُهَانًا﴾ ذليلاً مستحقراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني، ومضاعفةُ العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بالتوبة، والإيمان، والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها لواحق

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٣٧٨ ومسلم في الإيمان رقم ٨٦ باب كون الشرك أقبح الذنوب.

طاعاتهم، ولم يرد به تبديل السيئة بعينها حسنة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والإثبات.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي ومن تاب عن المعاصي، بتركها بالكلية، والندم عليها، ودخل في الطاعات، فإن الله يتقبل توبته، ويكون مرضياً عند الله تعالى، يمحو الله زلته، ويرفع درجته، ومعنى المتاب: التوبة التامة، وهي الجمع بين ترك القبيح، وفعل الجميل، وكأن المعنى أن توبته صادقة، لا غشَّ فيها ولا زغل.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة، فيشهدون بالباطل شهادة الزور، أو لا يحضرون محاضر الكذب، فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟﴾ على طريق الاتفاق ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ أي ما يجب أن يُلغى ويُطرح، ممَّا لا خير فيه ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه، والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش، والكناية عما يُستهجن التصريحُ به، عن أبي بَكْرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراكُ باللهِ، وعقُوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألاَ وقولُ الزورِ، وشهادةُ الزور، فما زال يكرّرها، حتى قلنا ليته سكت»[1] وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهَه، ويطوف به في الأسواق.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٢٦٥٤ ومسلم رقم ٨٧.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي والذين إذا وُعظوا بآيات القرآن، المنطوية على المواعظ والأحكام، أكبوا عليها سامعين بآذانٍ واعية، وعيون راعية، وإنما عبَّر عن ذلك بنفي الضدِّ ﴿لم يخرّوا عليها صُماً وعمياناً﴾ تعريضاً بما يفعله الكفرةُ والمنافقون، حيث يتعامون ويعرضون عن آيات الذكر الحكيم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي اجعل لنا ذرية صالحة تقر بهم أعيننا، وذلك بتوفيقهم للطاعة، وحيازة الفضائل، فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله، وشاركوه فيها، يُسر بها قلبه، وتَقَرُّ بهم عينه، لما يشاهده من مشايعتهم له في مناهج الدين، وتوقع لحوقهم به في الجنة، حسبما وعد الله بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي اجعلنا بحيث يُقتدى بنا في إقامة وظائف الدين، بإفاضة العلم، والتوفيق للعمل، وتوحيد ﴿إِمَامًا﴾ لأنَّ المراد واجعل كلَّ واحد منّا إماماً، وفي الآية ما يدلُّ على أن الرياسة في الدين، يجب أن تطلب، ويُرغب فيها، وقرةُ العين: أن يصادف قلبُه من يرضاه، فتقر عينُه به عن النظر إلى غيره.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الفضائل الجليلة، والصفات النبيلة ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ الغُرفةُ: الدرجةُ العالية من المنازل، أي يُثابون أعلى منازل الجنة، وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنونَ﴾ ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات، ورفض الشهوات، وتحمل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ من جهة الملائكة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي تُحيِّيهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة، والسلامة من الآفات، ويمكن أن يكون السلام من الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ وقيل: يحيِّي بعضُهم بعضاً بالسَّلام، الذي هو تحية الإسلام.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي حسنت الجنة موضع قرار وإقامة، وهي في مقابلة قوله تعالى عن جهنم: ﴿ساءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً﴾ أي ما أسوأ ذاك، وما أحسن هذا؟.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ بأن يبين للناس، أنَّ الفائزين بتلك النعماء، إنما نالوها بما عُدِّد من محاسنهم، ولولاها لم يُعتد بهم أي قل لهم ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي ما يكترث ولا يحفل بكم ربي، ولا يعتني بشأنكم، لولا دعاؤكم وعبادتكم له، ولولا ذلك لكنتم وسائر البهائم سواء، ولكنه سبحانه شفيق على العباد، ولذلك أرسل إليكم الرسل، وأنزل الكتب ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي فقد كذبتم بما أخبرتكم به، وخالفتموه

أيها الكفرة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاء التكذيب، أو أثرُه لازماً، يحيق بكم لا محالة، لكفركم وضلالكم، وتكذيبكم لآيات الله.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآبُ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مكيّة وهي مئتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ طسٓمٓ ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم ومركب من أمثال هذه الحروف، وقيل: اسم للسورة الكريمة، فهي تسمى سورة طسم.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى السورة ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي آيات الكتاب الواضح الجلي، المعجز في بيانه، الظاهر إعجازه وصحَّتُه، أو المبيِّن للأحكام الشرعية.

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ لعلَّ للإشفاق، أي أشفق على نفسك، ونظير هذه

الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[1] ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لعدم إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا به.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ استئناف مسوق لتعليل النهي عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى، فلا وجه للطمع فيه، والتأثر من فواته ﴿آيَةً﴾ أي ملجئة لهم إلى الإيمان ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي منقادين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لشدة تمردهم، وعدم ارعوائهم عن الكفر والتكذيب، أي ما يأتيهم من موعظة، من مواعظ القرآن الكريم تذكرهم بالله وتخوفهم عقابه، إلاَّ جدَّدوا إعراضاً عنها، على وجه التكذيب والاستهزاء.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي كذبوا بالقرآن تكذيباً مقارناً للاستهزاء به، ولم يكتفوا بذلك، بل طعنوا فيه، فجعلوه تارةً سحراً، وأخرى شعراً، ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعِبَر ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي فقد بلغوا النهاية في السخرية والتكذيب، فسوف يأتيهم عاقبة القرآن، الذي كانوا به يستهزئون، من العقوبات العاجلة والآجلة، وفي الآية تهويلٌ للعقاب، لأن النبأ لا يُطلق إلا على أمرٍ وخبرٍ خطير، كقوله سبحانه: ﴿عمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم﴾. ثم نبَّه تعالى على عظمة سلطانه، وباهر قدرته

---

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

في مخلوقاته ومصنوعاته، الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته، فقال سبحانه:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾؟ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض، كم أخرجنا فيها من كل صنف، حسن محمود، كثير الخير والمنفعة، مما يأكل الناس والأنعام؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم التدبر والاعتبار، قال الشعبي: الناسُ من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إنَّ في ذلك الإنبات لآية عظيمة باهرة، تدل على وحدانية الله وقدرته، ونهاية سعة رحمته، وما كان أكثر قومه عليه الصلاة والسلام مؤمنين، مع ظهور الدلائل الساطعة، لغاية تماديهم في الكفر والضلالة.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو العزيز أي الغالب القاهر، القادر على الانتقام من الكفرة، الرحيم أي المبالغ في الرحمة بخلقه، حيث يمهلهم ولا يعجِّل لهم العقوبة مع قدرته عليهم. ثم شرع تعالى في ذكر قصة موسى مع فرعون الطاغية الجبار، فقال سبحانه:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ أي اذكر يا محمد لأولئك المعرضين عن الإيمان، المكذبين بآيات الرحمن، من قومك، وقت ندائه تعالى وكلامه لموسى، ليلة رأى الشجرة والنار، حين رجع من مدين، وذكّرهم بما جرى على قوم فرعون، بسبب تكذيبهم إياه، وحذّرهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم ﴿ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي بأن ائت هؤلاء الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد بني إسرائيل، وذبح أبنائهم.

﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ ﴾ بدل من القوم الظالمين أي هم قوم فرعون العتاة الجبابرة ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾؟ أي ألا يخافون عذاب الله وعقابه؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم، أي ائتهم زاجراً لهم فقد آن لهم أن يتقوا، وهي كلمة حثٍّ وإغراء على التقوى.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ متضرعاً إلى الله تعالى ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ من أول الأمر.

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ أي يضيق صدري من تكذيبهم لي، وفي لساني عقدة، فأخشى ألا أستطيع أن أبلغهم دعوتك على الوجه الأكمل، ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ أي اجعل أخي هارون رسولاً وأرسله معي ليكون عوناً لي في تبليغ الرسالة، رتّب عليه السلام استدعاء ذلك على الأمور الثلاثة: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وازدياد الحُبسة في لسانه، وليس ذلك من التعلل والتوقف في الأمر، وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به، وتمهيد عذر فيه.

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ ﴾ أي تبعةُ ذنب، والمراد به قتل القبطي، وتسميته ذنباً بحسب زعمهم، كما ينبىء عنه قوله: ﴿ولَهُمْ﴾ ﴿ فَأَخَافُ ﴾ أي إن أتيتهم وحدي ﴿ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلته قبل أداء الرسالة، وهو طلب دفع البلية قبل وقوعها، لا للتعلل أيضاً.

﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا ﴾ حكاية لإجابته تعالى إلى المطلبين: الدفع عن الخوف، وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب إليهما، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنُّ، فاذهب أنت ومن استدعيته وفي قوله: ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي اذهب أنت وأخوك هارون بالمعجزات التي أيدتك بها وهي اليد، والعصا ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ أي معكما، أجراهما مجرى الجماعة، وهو جائز في اللغة، وقيل: المراد مع موسى وهارون وفرعون، فمع موسى وهارون بالعون والنصر، ومع فرعون بالقهر والكسر، وفيه مزيد تسلية لهما بضمان الحفظ والنصرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون، اعتبر في المعية أي سامعون ما يجري بينكما وبينه، مثَّل حاله عزَّ وجل بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم، يستمع ما يجري بينهم، ليمدَّ أولياءه مبالغةً للوعد بالإعانة.

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾ أي فأتيا فرعون الطاغية الجبار، واثقَين بالنصر والتأييد ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وإفراد الرسول لاتحاد مطلبهما أو لأنه مصدر بمعنى الرسالة وصف به، أي إنَّا مرسلون من ربِّ العالمين إليك.

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ومعنى إرسالهم: تخليتهم ليذهبوا معهما إلى الشام، ورفع يد الظلم والعدوان عنهم.

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى عليه السلام بعدما أتياه وقالا له ما أُمرا به ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون واستأذنا في الدخول فقال البواب لفرعون: إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك، فأديا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام. فقال عند ذلك ﴿أَلَم نُرَبِّكَ فِينَا﴾ أي في قصرنا ومنزلنا ﴿وَلِيداً﴾؟ أي طفلاً ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أي مكثت بين ظهرانينا سنين عديدة، ونحن نحسن إليك ونرعاك!! يروى أنه لبث فيهم اثنتي عشرة سنة، وفرَّ منهم على إثر ذلك، بعد قتله القبطي، فخرج إلى أرض مدين.

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي، فبعدما عدَّد عليه نعمته، وبخَّه بما جرى عليه من قتل خبَّازه، وعظَّم ذلك ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي بنعمتي، حيث عمدتَ إلى قتل رجل من خواصي، فأسأت إلى من أحسن إليك.

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا ﴾ قال مجيباً له، مصدقاً في القتل، ومكذباً فيما نسبه

إليه من الكفر ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي من الجاهلين، أو من المخطئين[1]، لا من الكافرين كما زعمت، لأن موسى لم يتعمَّد قتله، بل أراد تأديبه.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي فهربت منكم حين خفت على نفسي أن تصيبوني بمضرة أو تقتلوني ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ حكمة وفهماً ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ واختارني رسولاً إليك، فإن آمنت سلمتَ، وإن جحدت هلكت!! ردَّ أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته، ثم كرَّ على ما عدَّه نعمة وهو في الحقيقة نقمة فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؟ أي تمنُّ بها عليَّ ظاهراً، وهي في الحقيقة نقمة، فتعبيدك بني إسرائيل، وقصدك إياهم بذبح أبنائهم، وأنه السبب في وقوعي عندك، ولو تركتهم لرباني أهلي، ولم يلقوني في اليم، أوَ تلك نعمةٌ تمنُّها عليَّ؟ وتوحيد الخطاب في تمنُّها، وجمعه في ما قبله، لأن المنة منه خاصة، والخوفُ والفرارُ منه ومن ملئه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) فإن قيل: كيف قال موسى: ﴿وأنا من الضالين﴾ والنبي لا يكون ضالاً؟ والجواب أنه عليه السلام أراد به الخطأ أي وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله، وإنما أردت دفعه، ولم يقصد الضلال عن الهدى، لأنه معصوم منذ الصغر، وقال ابن عباس: ﴿وأنا من الضالين﴾ أي من الجاهلين لأنني كنت في حالة غضب.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لمَّا سمع منه تلك المقالة المتينة، وشاهد تصلبه في أمره، وعدم تأثره بما قدَّمه، شرع في الاعتراض على دعواه، فبدأ بالاستفسار عن المرسِلِ، فقال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حكاية لما وقع في عبارته، أيْ أيُّ شيءٍ ربُّ العالمين، الذي ادعيت أنك رسوله؟ منكراً لأن يكون للعالمين ربٌّ سواه، حسبما يعرف عنه قوله: ﴿أنا ربُّكُمْ الأعْلَى﴾ وهو سؤال عن الجسمية، والله تعالى منزَّهٌ عنها، يريد اللعين المغالطة، أي ما هي حقيقة الله؟ ومن أيِّ شيء يكون ربُّ العالمين؟ أمن ذهب أم فضة أم من لحم ودم؟ فلهذا أجابه موسى بذكر أفعاله وآثاره.

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ ﴾ أي هو خالق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات، وهو المالك لجميع الكائنات والمتصرف فيهما قاله حسماً لمادة تزوير اللعين، وتشكيكه بحمل العالمين على ما تحت مملكته ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل، فكفى خلق الأشياء دليلاً على خالقه!! سأل اللعين عن الماهية ﴿ما ربُّ العالمين﴾ أي من أي شيء هو؟ وما هو شكله وجنسه؟ وهذه مغالطة منه، فأجابه موسى عليه السلام بالأسلوب الحكيم، منبهاً إلى آثار قدرته وعظمته جلَّ وعلا.

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ فرعون عند سماع جوابه، خوفاً من تأثيره في قلوب قومه ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ ﴾ من أشراف قومه ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾؟ تعجيب لهم من جوابه عليه السلام، وأنه أمر حقيق بأن يُتعجب منه، كأنه قال: ألا تستمعون ما يقوله؟ فاستمعوه وتعجبوا منه؟ حيث أسأله عن الله، فيجيبني عن صفاته، ويريد

بذلك السخرية من موسى، بأنه لا يحسن الجواب، مع أن كلام فرعون هو كلام الأحمق، الذي لا يحسن حقيقة السؤال، ولو كان له عقل لقال «ومن ربُّ العالمين» ولهذا أكّد موسى عليه السلام بالجواب القاطع.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ حطَّاً له من ادعاء الربوبية إلى مرتبة المربوبية ﴿ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو المستحق للربوبية، ربكم وربُّ آبائكم السابقين، فوجودكم دليل على وجوده، وأنتم جميعاً عبيد له سبحانه، لأنه هو الذي خلقكم وصوَّركم، ولا يمكن أن يتوهم مثله، فهو واحد أحد، فرد صمد.

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون من سفاهته لمَّا واجهه موسى عليه السلام بما ذُكر، اغتاظ من ذلك، وخاف من تأثيره على قومه، فأراهم أن ما قاله عليه السلام، ممَّا لا يصدر عن العقلاء، سداً لهم عن قبوله، فقال مؤكداً ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق، أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له، أسأله عن شيء، فيجيبني عن شيء!! وسمَّاه رسولاً بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطبيه (رسولكم) ترفعاً من أن يكون مرسلاً إلى نفسه.

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ ﴾ تكميلاً لجوابه الأول، وتفسيراً له، وتنبيهاً على جهلهم، وعدم فهمهم لمعنى مقالته فإن بيان ربوبيته تعالى للسماوات والأرض وما بينهما هو مظهر الألوهية، فالله عزَّ وجلَّ هو المتصرف في الكون، يقلّب الليل والنهار، ويسيّر الشمس

والقمر، وهذا هو الطريق الأمثل لمعرفة ربوبيته تعالى، فإن ذكر المشرق والمغرب، منبئٌ عن شروق الشمس وغروبها، على نمط بديع، تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق، ويحركها على مدار غير المدار الذي قبله، على وجه نافع ينتظم أمور الكائنات، ويجعلها تغرب من الغرب، وهذا مشاهد يبصره العاقل والجاهل، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العقل والفهم، علمتم أن الأمر كما قلته[1]، وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة، فلمَّا تحيَّر فرعون، ولم يتهيأ له أن يدفع الحجة، رجع إلى الاستعلاء، متوعداً بالبطش والعنف، وهذا منطق الطغيان عندما لا يجد البرهان.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ لم يقنع منه عليه بترك دعوى الرسالة، حتى كلَّفه أن يتخذه إلَهاً، لغاية عتوه في دعوى الألوهية، وهذا صريح في أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الأول، ونسبته إلى الجنون كان لنسبته عليه السلام الربوبية إلى غيره، واللام في (المسجونين) للعهد أي لأجعلنك ممن عرفتَ أحوالهم في سجوني، حيث كان يطرحهم في هوةٍ عميقة، حتى يموتوا، ولذلك لم يقل لأسجننك.

---

(١) هذه من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل، كقول إبراهيم الخليل في مناظرة النمرود الذي أعطاه الله الملك ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب؟ فبهت الذي كفر﴾ وكأن موسى يقول لفرعون الجبار إن كنت حقاً إلهاً فبدّل نظام الحياة، واجعل الشمس تشرق من المغرب وتغرب من المشرق، فهذا هو السر في قوله: ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ وقد تلطف موسى ولاين أولاً طمعاً في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾ في مقابلة قول فرعون: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ وكأنه يقول: أنتم المجانين لا أنا.

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾؟ أي أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء جليّ واضح على صدق دعواي، يريد به المعجزة، فإنها جامعة بين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يديه، وعلى وجود الصانع وحكمته.

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي ائتنا بما يدل عليه كلامك!!.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي تتلألأ كالشمس الساطعة لها شعاع من غير ضرر.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾؟ بهره سلطانُ المعجزة، وحيَّره حتى حطَّه عن ذروة ادعاء الربوبية، إلى حضيض الخضوع لعبيده فيقول ﴿فماذا تأمرون﴾؟ يطلب منهم مؤامرتهم ومشاورتهم، بعدما كان مستقلاً في الرأي، وأظهر استشعار الخوف، من استيلائه على ملكه، ونسبةُ الإخراج والأرض إليهم ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ لتنفيرهم عن موسى عليه السلام.

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾ أي أخِّر أمرهما ولا تباغت قتلهما خوفاً من الفتنة ﴿ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ أي وأرسل الشرطة يحشرون السحرة، ويجمعونهم لك من أطراف المملكة.

﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ يَأۡتُوكَ ﴾ أي الحاشرون ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ صيغة «سحَّار» للمبالغة، أي فائق في فن السحر ماهر في صنعته.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ هو اليوم الذي عيَّنه موسى عليه السلام بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ أي وقت الضحى في أول أيام العيد.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴾ أي ألا تجتمعون لهذا الأمر الجليل؟ والمرَادُ منه استعجالُهم، حثاً لهم على المبادرة إليه.

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ ﴾ أي نتبعهم في دينهم ﴿ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾ أي إن غلبوا موسى، وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة، وإنما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ عظيماً ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾؟ أي إذا غلبنا موسى، فهل تكرمنا بإكرام جزيل؟.

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ لكم ذلك ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عندي إذا غلبتم موسى، أجعلكم من خاصتي ومن جلسائي.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي بعد ما قال له السحرة ﴿ إِمَّآ أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ أي ألقوا ما أنتم ملقون من السحر، فسوف ترون عاقبة أمركم، أراد عليه السلام التهاون في الأمر، وترك المبالاة بهم، ثقة بنصر الله له، ولتظهر المعجزة على رؤوس الأشهاد، بعد أن يبذلوا كل جهودهم لغلبته.

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ قالوا ذلك، لفرط اعتقادهم في أنفسهم، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يُؤتى به من السحر، ومرادهم أنَّا سننتصر ونغلب موسى، ونقسم على ذلك بعزة فرعون.

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ أي تبتلع بسرعة الحبال والعصيَّ ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي ما يقلبونه من وجهه بتمويههم، فيخيلون حبالهم وعصيَّهم أنها حيات تسعى.

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ أي خرُّوا سجداً قائلين: آمنا بالرب الحقيقي، الذي أخبرنا عنه موسى وهارون لا ما يزعمه فرعون المفتري على الله.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ ﴾ أي قبل أن تستأذنوني ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ أي إنه رئيسكم الذي علمكم السحر، فتواطأتم على ما فعلتم، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه، كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة، وظهور حق ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هدَّدهم بالقتل والصلب تخويفاً لهم ليرجعوا.

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ ﴾ أي لا ضرر علينا في ذلك ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ تعليل لعدم الضر، أي لا ضير بل لنا نفع عظيم، فيما تتوعدنا به من القتل، لأنه لا بد لنا من الرجوع إلى ربنا، فيثيبنا بالصبر على ما فعلت بنا، ويجازينا على التوحيد.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لأن كنا أول المؤمنين بالله، من أتباع فرعون الكفار، ولمَّا ثبتوا على الإيمان، نفَّذ فيهم فرعون حكم الإعدام، فقتلهم ليبقى له ملكُه.

قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء بَرَرة.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي أخبرنا موسى بطريق الوحي، أن فرعون يتبعكم وجنوده مصبحين ﴿فَأَسْرِ﴾ أي سرْ بالليل بمن معك، حتى لا يدرككم قبل الوصول إلى البحر.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أخبرهم بمسيرهم ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي جامعين للعسكر ليتبعوهم، فلما اجتمعوا قال:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ الشرذمة طائفة قليلة، استقلَّهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، فأرسل في أثرهم ألف ألف.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا بمخالفتهم لنا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم في الأمور، اعتذر بها إلى أهل المدائن، لئلا يُظن به ما يكسر من قهره وسلطانه.. قال تعالى مبيِّناً عاقبتهم الوخيمة:

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه الظالمين ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي بساتين كانت ممتدة على حافتي النيل، فيها الأنهار الجارية.

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومن أموالهم الوفيرة، ومنازلهم البهية.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ملكناها إياهم على طريقة تمليك مال الموروث، بعد إغراق فرعون وقومه.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ أي فلحقوهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي سيدركنا جنود فرعون ويقتلوننا، جاؤوا

بالجملة الاسمية، مؤكدة بحرفي التأكيد «إن» و «اللام» للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق، وتحقق الهلاك والفَناء.

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ كَلَّآ ﴾ أي ارتدعوا عن ذلك، فإنهم لا يدركونكم، فإن الله وعدكم الخلاص منهم ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ بالنصرة والهداية ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى طريق النجاة منهم بالكلية، روي أن قوم موسى عليه السلام قالوا يا كليم الله: أين أُمرتَ، وقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟.

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ ﴾ هو بحر القلزم، ويُعرف موضعها بالسويس، وهو بحر مظلم موحش لا خير فيه ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾[1] أي فضربه فانفلق، فصار اثني عشر فرقا، بعدد الأسباط ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ حاصل بالانفلاق ﴿ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ كالجبل الثابت في مقرِّه، فدخلوا في شعابها، كل سبط في شعب منها، لئلا يتزاحموا ويتخاصموا في اقتحام الطريق.

---

(١) لما انفلق البحر جعله الله يبساً لموسى عليه السلام والمؤمنين، وصار فيه اثنا عشر طريقاً، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، وأمر الله موسى أن يترك البحر على حاله كما قال سبحانه: ﴿واترك البحر رَهْوَاً إنهم جند مغرقون﴾ فلما خرج موسى ومن معه، وتكامل دخول أصحاب فرعون، أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه، فقال بعض المؤمنين من أصحاب موسى: ما غرق فرعون، فأمر الله البحر أن يطرح جثته، حتى نظروا إليه فتحققوا هلاكه، وكان ذلك اليوم، يوماً عظيماً من أيام الله الخالدة، ولهذا صامه موسى والمؤمنون معه، شكراً لله على نجاتهم، وإهلاك أعدائهم، ويصادف هذا اليوم يوم العاشوراء الذي حضَّ النبي ﷺ على صيامه.

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴾ أي قربنا هناك فرعون وجماعته، قرَّبنا بعضهم من بعض، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾ فرعون وعساكره حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم، وأصبحوا جميعاً في البحر.

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين جميعاً، بحفظ البحر على تلك الهيئة، إلى أن عبروا.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ بإطباقه عليهم، أغرقناهم في البحر، جزاء كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في جميع ما فُصِّل من القصة ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون، ويقيسوا شأن الرسول ﷺ بشأن موسى عليه السلام، كيلا يحلَّ بهم مثل ما حلَّ بأولئك ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ أي أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدّقين لرسل الله، مع كل الآيات والنذر، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيد لمن عصاه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الغالب على كل ما يريده، والمبالغ في الرحمة لعباده.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على المشركين ﴿ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي خبره العظيم الهام، حسبما أوحي إليك، لتقف على عدم إيمانهم، بما يأتيهم من الآيات، شأنهم شأن جميع المكذبين، وهذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي أيَّ شيء تعبدونه؟ سألهم عن ذلك، ليبني على جوابهم، أن ما يعبدونه بمعزل، من استحقاق العبادة بالكلية.

﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصناماً، بل أطنبوا فيه قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم من الافتخار بذلك، والمراد بقولهم ﴿فنظلُّ﴾ الدوام والاستمرار على عبادتها.

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾؟ أي في الوقت الذي كنتم تدعونها فيها؟.

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾ بسبب عبادتكم لها ﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾؟ أي يضرونكم بترككم لعبادتها، إذ لا بدَّ للعبادة من جلب نفع، أو دفع ضر.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ اعترفوا بأنها بمعزل عن السمع، والنفع والضر، وأظهروا أن لا سند لهم سوى التقليد أي ما علمنا وما رأينا منهم مما ذكر من الأمور، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فاقتدينا بهم.

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم ﴾ أي أنظرتم وتأملتم فيما فعلتم؟ ﴿ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أي ما تعبدونه من هذه الأوثان والأصنام، هل فيها شيء من صفات الإله القادر؟.

﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ أي السابقون.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ ﴾ أي فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم، لما أنهم يتضررون من جهتهم، فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، لكنه عليه السلام صوَّر الأمر في نفسه تعريضاً بهم، فإنه أنفع في النصيحة من التصريح، ويكون أدعى إلى القبول ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ استثناء منقطع أي لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو وَليِّي في الدنيا والآخرة، يتفضَّلُ عليّ بأنواع النعم.

ثم فصَّل ذلك بقوله:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى ﴾ صفة لرب العالمين أي الله الذي أوجدني وخلقني،

هو الذي يهديني إلى سبيل الرشاد، لا هذه الأصنام الصمّاء ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ أي يهديني وحده إلى كل ما يهمني ويصلحني، من أمور الدين والدنيا، هداية متجددة على الاستمرار، متدرجة من مبدأ إيجاده، إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره.

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩﴾.

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ أي يرزقني الطعام والشراب، فهو الخالق وهو الرازق، لا هذه الأصنام والأوثان!؟.

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾.

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ أي وإذا حلَّ بي المرض فهو سبحانه الذي يشفيني منه، ونسب المرضَ إلى نفسه، والشفاء إلى الله تعالى، مع أنها منه تعالى جميعاً، لمراعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام ﴿فَأَرَدۡتُ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ وقال: ﴿فأراد رَبُّكَ أنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ وكل ذلك مراعاة للأدب مع الله سبحانه، في نسبة الخير إليه، والشرِّ إلى الإنسان، أو الشيطان.

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١﴾.

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ أي هو تعالى المحيي المميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني عند انتهاء أجلي، ثم يبعثني يوم الحساب والجزاء.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه،

وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذر، وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، أنه لا يصلح للألوهية إلاَّ من يفعل هذه الأفعال الجليلة.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ بعدما ذكر عليه السلام فنون الألطاف الفائضة عليه من الله، من مبدأ خلقه إلى يوم بعثته، حمله ذلك على مناجاته تعالى طلباً للمزيد، وقد ابتدأ بالثناء على الله، وذكر بعد ذلك الدعاء، وفيه تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات ﴿ حُكْمًا ﴾ أي الحكمة التي هي الكمال في العلم والعمل، بحيث يتمكن به من خلافة الحق، ورياسة الخلق ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ووفقني لما يرشحني للانتظام في زمرة الكاملين، الراسخين في الصلاح، واجمع بيني وبينهم في الجنة، ولقد أجابه تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ المراد باللسان: الثناء العاطر، والذكر الحسن، وضع اللسان موضع القول، لأن القول يكون به، أي جاهاً، وحُسْن صِيتٍ في الدنيا، بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين، وقد أجابه تعالى، ولذا لا ترى أمة من الأمم إلا وهي محبة له عليه السلام.

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَاجْعَلْنِي ﴾ في الآخرة يوم لقائك الكريم ﴿ مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أي من الباقين المخلدين فيها.

﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓۖ ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي الحائدين عن سبيل الهدى.

﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ ﴾.

﴿ وَلَا تُخۡزِنِي ﴾ أي لا تُذِلَّني ولا تُهنّي، يوم تبعث الخلائق للحساب، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله، وكل ذلك مبني على هضم النفس منه عليه السلام ﴿ يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴾ أي الناس كافة للحساب والجزاء.

﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ ﴾.

﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ﴾ جيء به تأكيداً للتهويل، وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء ﴿ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي لا ينفع مال، وإن كان مصروفاً إلى وجوه البر، ولا بنون وإن كانوا صلحاء.

﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ عن مرض الكفر والنفاق، ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان.

﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠ ﴾.

﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ ﴾ صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، أي قُرِّبت الجنة ﴿ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ للمؤمنين الصالحين المتقين لربهم، قُرّبت لهم بحيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، ويعرفون بأنهم المحشورون إليها، فتفتح لهم أبوابها، وتُقرَّب منهم ليشاهدوها، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ مفتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوابُ﴾.

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي الضالين عن طريق الحق، الذي هو الإيمان والتقوى، أي جعلت بارزةً لهم، بحيث يرونها مع ما فيها من الأحوال الهائلة، ويوقنون أنهم مواقعوها.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ في الدنيا.

﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم في هذا الموقف؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾؟ بدفعه عن أنفسهم؟ وهذا سؤال تقريع وتبكيت، ولا يتوقع لهم جواب ولذلك قيل:

﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا ﴾ أي أُلقوا في الجحيم على وجوههم، مرةً بعد أخرى، والكبكبة تكرير الكبِّ، لتكرير معناه، كأن من ألقي في النار ينكبُّ مرةً بعد أخرى، حتى يستقرَّ في قعرها ﴿ هُمْ ﴾ أي آلهتهم ﴿ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ وفي تأخير ذكرهم رمز إلى أنهم رأوا آلهتهم المزعومة وهي تهوي إلى قعر الجحيم، ليشاهدوا حالها ومآلها.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ أي الشياطين الذين كانوا يغوونهم، ويوسوسون إليهم، ويحسّنون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ ليجتمعوا في العذاب جميعاً، حسبما كانوا مجتمعين على الضلال في الدنيا.

﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي العبدة ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي قالوا معترفين بخطئهم، في انهماكهم في الضلال، متحسرين على أنفسهم، والحال أنهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون، ويلعن بعضهم بعضاً.

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ «إنْ» مخفَّفة، أي إن الشأن كنا في ضلال واضح، لا خفاء فيه، ووصفهم له بالوضوح، لإظهار ندمهم وتحسرهم، وبيان عظم خطئهم مع وضوح الحق.

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي تالله لقد كنا في غاية الضلالة، إذ نسويكم أي نَعْدِلكم أيها الأصنام برب العالمين.

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ منهم، والمعنى: وما صدر عنا ذلك الضلال إلا بسبب إضلالهم، والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم وهم رؤساؤهم كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[1] .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء عليهم السلام.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦٧.

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ الحميم من الاحتمام، وهو الاهتمام الذي يهمُّه ما يهمُّك، أي وليس لنا صديق مخلص الود، ينقذنا من عذاب الله.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ لو للتمني كأنه قيل: فليت لنا كرَّة أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب التمني.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من نبأ إبراهيم عليه السلام ﴿ لَءَايَةً ۖ ﴾ لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم يا محمد، وحي صادقٌ نازل من جهته تعالى، وعظة لمن أراد أن يتبصر بها، ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب، وأحسن تقرير، والتنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وكمال إشفاقه عليهم، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً، وإيقاظاً لهم، ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي ومع كل هذه البراهين، لم يؤمن أكثر الناس، بل كذَّبوا وجحدوا واستهزؤوا.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ تكذيبهم المرسلين، باعتبار إجماع الكل على التوحيد، فمن كذّب رسولاً فقد كذّب سائر المرسلين، ولهذا السرِّ جاء اللفظ بالجمع، مع أنهم كذبوا رسولهم نوحاً.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ ﴾ إذ ظرف للتكذيب، أي حين قال لهم نوح عليه السلام ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أخوهم في النسب لا في الدين ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي ألا تخافون عقاب الله، حيث تعبدون غيره؟.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ من جهته تعالى ﴿ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم.

﴿ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد، والطاعة لله.

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على نصحي ودعائي لكم إلى الإيمان ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي أجراً أصلاً ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله تعالى، الذي بعثني لهدايتكم.

﴿ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ التكرير للتأكيد، كأنه قال: عرفتم رسالاتي وأماناتي، فاتقوا الله وأطيعوا أمري.

﴿ ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ أي الأقلون جاهاً ومالاً.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر، وبناء الأحكام عليها، دون التفتيش عن بواطنهم، والشق عن قلوبهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي ليست محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفيتها البارزة والكامنة ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فإنه المطَّلع على السرائر ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب عما أوهمه كلامهم.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ كالعلة له، أي ما أنا إلا رسول مبعوث لأنذر المكلفين، وأزجرهم عن الكفر والمعاصي، فكيف يتسنى لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ عما تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ من المرميين بالحجارة، قالوه في آخر الأمر، فعند ذلك حصل اليأس.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ أي كذبوني ولم يؤمنوا بي، وأصرُّوا على ذلك، ولم يزدهم دعائي إلاَّ فراراً.

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ أي احكم بيننا بما يستحقه كلٌّ منا، واحكم بيننا بحكمك العادل، والفتَّاحُ: الحاكم، لأنه يفتح المستغلق ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من إجرامهم ومن شؤم أعمالهم.

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ حسب دعائه ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ أي المملوء بهم، وبما لا بدَّ لهم منه من الطعام، واللباس، وأنواع الحيوان.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَٰقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَٰقِينَ ﴾ أي بعد إنجائهم أغرقنا الباقين من قومه.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تصدير القصص به، للتنبيه على أن مبنى البعثة، هو الدعاءُ إلى معرفة الحقِّ والطاعة، وأن الأنبياء مجمعون على ذلك، وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع.

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ أي مكان مرتفع من الأرض، وقيل بكل طريق، والرِّيعُ بالكسر: الطريق، والمكانُ المرتفع ﴿ءَايَةً﴾ أي بناءً شامخاً هائلاً كالعَلَم، للمباهاة والفخر، ولمجرد اللهو واللعب، وإظهار الجَلَد والقوة؟ ولهذا قال بعده ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي ببنائها، أو بناءً يجتمعون إليه، ليعبثوا بمن مرَّ عليهم في الطريق، إلى هود عليه السلام.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أي قصوراً مُشيَّدةً، وحصوناً تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي راجين أن تخلدوا في الدنيا، عاملين عمل من يرجو ذلك، فلذلك تُحْكِمون بنيانها.

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم ﴾ أي أخذتم أخذ العقوبة ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي متسلطين ، غاشمين، بلا رأفة ولا نظر في العاقبة، أي أنهم مع ذلك السَّرف، والحرص، فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، فدلَّ ذلك على أنَّ حب الدنيا استولى عليهم، بحيث خرجوا عن حد العبودية، وهاموا حول ادعاء الربوبية، وطَغَوْا وفجروا.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ واتركوا هذه الأفعال، واتبعوني فيما أدعوكم إليه، فإنه أنفع لكم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ من أنواع النعماء، أجملها أولاً ثم فصَّلها بقوله:

﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير.

﴿وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ أي بساتين وأنهار جارية.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ في الدنيا والآخرة، فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم وَلَئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد﴾.

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾.

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أي يستوي عندنا وعظك وتذكيرك وعدمه، فإنا لن نرعوي عما نحن عليه، ومرادهم المبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه ونصحه.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾.

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به، وتدعونا إليه ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي عادتهم، كانوا يُلفّقُون مثله ويسطرونه، وقد سمعنا مثل هذا مراراً وتكراراً، أننا سنموت ثم نحيا، وما هذه إلا خرافات وأباطيل الأولين.

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نحن من الأفعال، فلا بعث ولا حساب، ولا جزاء ولا عذاب.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي أصرُّوا على ذلك ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ ﴾ بسببه بريح صَرْصَر عاتية ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي ومع هذه البراهين القاطعة، لم يؤمن أكثر الناس، لشدة عتوهم وضلالهم.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هذه كلمة كل رسول، يذكِّر بها قومه، بالغاية من بعثته ورسالته.

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ﴾ أي في الدنيا ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ إنكار ونفي لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة، والمعنى أيترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين، مخلَّدين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا على الدوام.

﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أي في بساتين وعيون جارية، وسهول فسيحة، فيها أنواع الزروع والنخيل؟ والهضيمُ: اللَّيِّنُ اللطيفُ الثمر وطلع هضيم: دخلَ بعضُه في بعض، والطَّلعُ بالفتح: ما يطلع من النخلة، ثم يصير ثَمَراً، والغرض توبيخهم على ترك شكر هذه النعم، كأنه يقول: أتُتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء؟.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ أي بطرين معجبين بصنيعهم من غير حاجة إلى سكناها؟ وظاهر هذه الآيات، يدل على أن الغالب على قوم صالح عليه السلام، هو اللذات الحالية، وهي طلب المأكول والمشروب، والمساكن الحصينة.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي الكبراء المجرمين الذين أسرفوا في العصيان.

﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ بالكفر والظلم، وهم الذين عقروا الناقة.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي الذين غُلب على عقولهم فيخلطون، والمسحَّر مبالغة من المسحور، الذي أثَّر فيه السحر تأثيراً بليغاً.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي لست إلا رجلاً مثلنا، فكيف تزعم أنك رسول الله؟ ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أي ائتنا بمعجزة تثبت لنا رسالتك، وصحة دعواك.

﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ ﴾ أي بعد أن أخرجها الله تعالى من الصخرة، بدعائه عليه السلام حسبما مرَّ تفصيله ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ نصيبٌ من الماءِ، تشرب ماءكم يوماً، ويوماً تشربون أنتم الماء ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فاقتنِعُوا بشربكم، ولا تزاحموها على شربها.

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ كضرب وعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي يهلككم الله عاجلاً.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴾ أسند العقر إليهم كلهم، لما أنَّ عاقرها عقر برأيهم، ولذلك عمَّهم العذاب، وقوله تعالى: ﴿فأصبحوا نادمين﴾ خوفاً من حلول العذاب، لا توبة وندماً، ولذلك لم ينفعهم الندم.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المنتقم من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۞ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قد مر الكلام أن تكرار هذه الآيات، للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة.

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ ﴾ أي أتأتون الذكور من الناس، مع غلبة النساء وكونهن أليق بالاستمتاع ﴿ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي من بين من عداكم من العالمين، لا يشارككم فيه غير الحيوانات.

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿ مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ ﴾ من للبيان إن أريد جنس الإناث وهو الظاهر ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أي متجاوزون الحدَّ في جميع المعاصي، وهذا من جملتها، ومتجاوزين حد الشهوة حيث زادوا على الحيوانات بالاستمتاع بالذكور.

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ ﴾ عن تقبيح أمرنا أو نهينا عنه ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ أي من المنفيِّين من قريتنا، وكانوا يخرجون من أخرجوه على عنف وسوء حال.

﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ أي من المبغضين أشد البغض، وهو أبلغ من أن يقال: «إني لعملكم قالٍ» لدلالته على أنه من زمرة الراسخين في بغضهم، ولعلَّه أراد إظهار الكراهة في مساكنتهم، والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم، ولذلك أعرض عن محاورتهم، وتوجَّه إلى الله عزَّ وجلَّ قائلاً.

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤم عملهم، وغائلته.

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أهل بيته ومن تبعه في الدين، بإخراجهم من بيتهم عند مشارفة حلول العذاب بهم.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ هي امرأة لوط ﴿ فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ من الباقين في العذاب، لأنها كانت مائلة إلى القوم، بقيت في القرية ولم تخرج، فهلكت مع الهالكين.

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ أي أهلكناهم أشد هلاك، بقلب ديارهم وقراهم.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ غير معهود، قيل أمطر الله على شذاذ القوم حجارة ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي لمن أنذرهم لوط عليه السلام.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأيكةُ: الغوطة ذات الأشجار والثمار، وهي بقرب مدين، يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شُعيب عليه السلام، وكان مختبئاً عنهم، ولذا لم يقل تعالى «أخوهم» بل كان من نسيب أهل مدين.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، وما أجري وثوابي إلاَّ على الله تعالى.

﴿ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أي أتمّوا الكيل للناس على الوجه الأكمل ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أي حقوق الناس بالتطفيف والبخس.

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَزِنُوا ﴾ أي الموزونات ﴿ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي بالميزان العادل.

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تُنقصوا شيئاً من حقوقهم، أيَّ حقٍ كان، وهذا تعميم بعد تخصيص، لغاية انهماكهم فيها ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل، والغارة، وقطع الطريق.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي والخلائق الأولين، وهم من تقدم من الخلائق. الجبلة بكسرتين الخليقةُ، والطبيعةُ يُقال: جَبَله الله على كذا، أي فطره عليه.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي المسحورين.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخال الواو بين الجملتين، للدلالة على أن كلاً من التسحير، والبشرية، منافٍ للرسالة، مبالغة منهم في التكذيب ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعوى النبوة والرسالة.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب؛ فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبُه.

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي، وبما تستحقون من العذاب.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي ظلوا على تكذيبه وأصروا عليه ﴿ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾ حسبما اقترحوا، وفي إضافة العذاب إلى «يوم الظلة» دون نفسها، إيذان بأن لهم يومئذ عذاب آخر ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي شديد هائل، عظيم في الشدة والهول.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ هذا آخر القصص السبع، المذكورة على سبيل الاختصار، تسلية للرسول ﷺ، وتهديداً للمكذبين به، فإن كل هذه القصص ذكر مستقل متجدّد النزول قد أتاهم من جهته تعالى، وما كان أكثرهم مؤمنين، بعدما سمعوها، واستمروا على ما كانوا عليه من الضلال، وهذا نهاية الطغيان.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي هذا القرآن المعجز وما ذكر فيه من الآيات الكريمة، الناطقة بالقصص الإلَهي ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي منزلٌ من جهته تعالى، وإنزاله من أحكام تربيته تعالى للعالَم ورأفته بالكل.

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ ﴾.

﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ أي أنزله ﴿ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ جبرائيل عليه السلام، فإنه أمين وحيه تعالى، وموصله إلى أنبيائه.

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أي روحك لأن المعاني الروحانية، تنزل أولاً على الروح، ثم تنتقل منه إلى القلب، لما بينهما من التعلق، أي أثبته في قلبك إثبات ما لا يُنسى كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ وإنما قال: ﴿على قلبك﴾ وإن كان إنما أنزله عليه، ليؤكد به أن ذلك المنزل، محفوظٌ للرسول، متمكن في قلبه، لا يُمحى، ولأن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلذلك أودعه الله في قلبه، دون سمعه وسائر حواسه، لأن القلب مكان الحفظ والإدراك ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أي أنزله لتنذر الكافرين بما في تضاعيفه من العقوبات لينزجروا عن غيّهم.

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ واضح المعنى، لئلا يبقى لهم عذر، ولو نزل بغير لغتهم العربية، لقالوا: ما فائدة كلام لا نعرفه ولا نفهمه؟ فلذلك أنزله الله عزَّ وجل باللسان العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون بيّناً واضحاً، حجة على صدق الرسول الأميّ، فقد كان العرب فرسان البلاغة، وملوك البيان، وجاءهم القرآن بما أخرسهم وأعجزهم عن مجاراته.

﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره، لفي الكتب المتقدمة، للأنبياء السابقين، فإن أحكامه التي لا تحتمل النسخ، من

التوحيد، وما يتعلق بالذات والصفات، مسطورة فيها، وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر، كأنه قيل: أغَفلُوا عن ذلك، ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين، وأنه لفي كتب الأولين ﴿ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾؟ أي أن يعرفوه بنعوته المذكورة في كتبهم، ويعرفوا ما أنزل عليه؟ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: بعث أهل مكة إلى اليهود ـ وهم بالمدينة ـ يسألونهم عنه ﷺ فقالوا: إن هذا لزمانُه، وإنَّا لنجد في التوراة نعتَه وصفتَه.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ ﴾ أي القرآن كما هو بنظمه الرائق المعجز ﴿ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴾ الذي لا يقدرون على التكلم بالعربية، فقرأه على كفار مكة، قراءة صحيحة فصيحة لما آمنوا، والآية لبيان تماديهم بالمكابرة والعناد.

﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم ﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادة ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع إعجاز القرآن بانضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، لفرط عنادهم ومكابرتهم.

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك السلك البديع سلكناه، أي أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، ففهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنه خارج عن القُوى البشرية، من حيثُ النظمُ المعجزُ، ومن حيث الإخبار عن الغيب، وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتب، على تضمنها للبشارة بإنزاله، وبعثة من أُنزل عليه بأوصافه.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ مسوق لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور، الداعية إلى الإيمان به، بل يستمرون على ما هم عليه، حتى يروا العذاب الأليم، الملجىء إلى الإيمان به، حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للإمهال، لتلافي ما فرَّطوا في جنبه.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ بقولهم تارة: ﴿أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وتارة بقولهم: ﴿ائتنا بما تعدنا﴾ أي أفيكون حالهم كما ذُكر من الاستنظار، عند نزول العذاب، فيستعجلون بعذابنا؟ وبينهما من التنافي ما لا يخفى،

لأنهم كانوا يستعجلون العذاب في الدنيا، وعند نزول العذاب في الآخرة، يطلبون النظر والإمهال.

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ أي أخبرني، والخطاب لكل من يصلح له ﴿ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴾ متطاولة بطول الأعمار، وطيب المعاش.

﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم ﴾ أي أيَّ شيء أغنى عنهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ أي كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد؟ والاستفهام للإنكار والنفي[1].

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ من القرى المهلكة ﴿ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ قد أنذروا أهلها، إلزاماً للحجة.

﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.

---

(١) معنى الآية الكريمة: أرأيت إن متعناهم تلك السنين الطويلة، مع وفور الصحة، ورغد العيش، ثم جاءهم العذاب الذي وعدوا به، ماذا ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب؟.

﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكرة، وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم، لأننا أقمنا الحجة عليهم، وأعذرنا إليهم ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتعبير عنه بذلك، لبيان كمال نزاهته تعالى عن الظلم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ردٌّ لما زعمه الكفرة، في القرآن الكريم، من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة، بعد تحقيق الحق، ببيان أنه نزل به الروح الأمين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أي ما يصحُّ وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك أصلاً.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ أي الشياطين عن سماع كلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة، في صفاء الذات، والاستعداد لقبول فيضان نور الحق، كيف لا ونفوسهم ظلمانية شريرة، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم، المنطوي على الحقائق الرائقة، التي لا يمكن تلقّيها إلاَّ من الملائكة.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ خوطب به الرسول ﷺ، مع

استحالة صدور المنهي عنه عنه ﷺ تهييجاً، وحثاً على ازدياد الإخلاص، ولطفاً لسائر المكلفين، ولأن من شأن الحكيم، إذا أراد أن يؤكد الخطاب، يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود هم الأتباع.

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَنذِرْ ﴾ العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقرب منهم، فالأقرب، لأن الاهتمام أولاً بشأنهم أهم، روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عَدِي، لبطون من قريش، حتى اجتمعوا فقال ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، فقال: فإني نذير لكم بين يديْ عذابٍ شديد، فقال أبو لهب تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تبت يدا أبي لَهَبٍ وتبَّ﴾»[1].

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ليِّنْ جانبك لهم، وتواضع، مستعارٌ من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن ينحطَّ، خفضَ جنَاحه، والمراد تواضع لأتباعك المؤمنين.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٨٥ ومسلم في الإيمان رقم ٢٠٨ باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ لم يتبعوك ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مما تعملونه من الكفر والإجرام.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي الذي يقدر على قهر أعدائه، ونصر أوليائه، يكفيك شرَّ من يعصيك.

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى التهجد في ظلمة الليل.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي ويرى حركاتك مع المصلين في الجماعة في قيامك، وركوعك، وسجودك.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لما تقوله ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما تخفيه.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾؟ أي هل أخبركم على من تتنزل الشياطين؟ وهذا ردٌّ عليهم حين قالوا: إنما يأتيه بالقرآن الشياطين.

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي تتنزَّل على كل كذَّاب فاجر، مبالغ في الكذب والعدوان، وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ، منزَّهةً عن أن يحوم حولها، شائبةُ شيء من تلك الأوصاف، اتَّضح استحالةُ تنزلهم عليه ﷺ.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي الأفاكين، يُلقون السمع إلى الشياطين، فيتلقون منهم أوهاماً وأباطيل، لا حقيقة لها، فيضمُّون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة، خرافاتٍ لا يطابق أكثرها الواقع، وذلك قوله تعالى ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أي فيما قالوه من الأقاويل، ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حقِّ القرآن الكريم، من أنه من قبيل الشعر، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله ﷺ، بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يُلقي الشيطان على الكهنة، والمعنى: إن الشعراء ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ أي يجاريهم ويسلك مسلكهم ﴿الغَاوُونَ﴾ الضالون عن السنن، الجائرون فيما يأتون وما يذرون، لا يستمرُّون على وتيرة واحدة، في الأقوال والأفعال والأحوال.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال يهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيل معين بل يتحيرون، ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية، والقدح في الأنساب الطاهرة، والتفريط في المدح والهجاء، وكما قيل: أعذب الشِّعر أكذبُه.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفاعيل، غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم، فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم، من اتصف بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلّق بمكارم الأخلاق الجميلة، وحاز جميع الكمالات القدسية، وهو النبي المعصوم محمد رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه؟.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله، ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد، والثناء على الله تعالى، والحث على طاعته، والحكمة والموعظة الحسنة، ولو وقع منهم في بعض الأوقات ذمٌّ وهجوٌ، وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم. روى الشيخان عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان: «اهج المشركين، فإنَّ جبريل معك»[1] وروى البخاري عن أبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر حكمة»[2] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد، يقوم عليه قائماً، يفاخر عن

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/٤٥٣ في الأدب ومسلم رقم ٢٤٨٦ في فضائل الصحابة «باب فضل حسان».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ١٠/٤٤٥، وأبو داود رقم ٥٠١٠ باب ما جاء في الشعر.

رسول الله ﷺ وينافح، ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد حسان بروح القدس، ما نافح عن رسوله»[1].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لما في ﴿سيعلم﴾ من تهويل وفي ﴿الذين ظلموا﴾ من الإطلاق والتعميم، وفي ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ من الإبهام والتهويل، أي أيَّ مرجع يرجعون إليه؟. يعني أن الذين ظلموا أنفسهم، وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون إليه؟

والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء»

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠١٥، والترمذي رقم ٢٨٤٩ باب ما جاء في إنشاء الشعر، وروى بعضه البخاري وانظر جامع الأصول ٥/ ١٧٤.

obeikandl.com

obeikandl.com

سُورَةُ النَّمْلِ

مكية وهي ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ طسٓ ﴾ بالتفخيم، والكلامُ فيه كالذي مرَّ في نظائره[1] ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى نفس السورة، لأنها التي نوهت بذكر اسمها، أي هذه الآيات المنزلة عليك يا محمد، هي ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي آيات القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه ﴿ وَكِتَابٍ ﴾ أي كتاب عظيم الشأن ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أي ظاهر إعجازه وصحته، موضّح لما في تضاعيفه من الحِكَم والأحكام، أبان الله فيه الأحكام، وهدى الأنام.

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حال من الآيات، مصدرانِ أُقيما مقام الفاعل للمبالغة، كأنهما نفس الهدى والبشارة، أي هادية ومبشرة لهم، تزيدهم

---

(١) أن المراد بالحروف المقطعة، هو الإشارة والتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، فهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، وانظر أول سورة البقرة من هذا التفسير.

هدى، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ صفة مادحة لهم ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ كأنه قيل: هؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات، هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان، لا من عداهم، فإن تحمل المشاق في العبادات، إنما يكون لخوف العقاب، ورجاء الثواب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ بيان لأحوال الكفرة، أي الذين لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع، محبوبة للنفس كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[1] كما ينبىء عنه قوله ﷺ: «حُفت النارُ بالشهوات»[2] ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يتحيرون ويترددون في الاشتغال بها، من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر.

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ أُولَٰٓئِكَ ﴾ أي الموصوفون بالكفر والعَمَه ﴿ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي

---

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

(٢) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في صفة الجنة رقم ٢٨٢٢ ولفظه «حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» وأخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٧٤ بلفظ «حجبت الجنة بالمكاره وحُجبت النار بالشهوات».

في الدنيا، كالقتل، والأسر ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي أشد الناس خسراناً، لفوات الثواب، واستحقاق العقاب.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أكَّده بحرفيّ التأكيد، «إنَّ» و «اللَّام» لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي لتُعطاه بطريق التلقية والتلقين ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أيْ أيِّ حكيم، وأيِّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيصٌ على علوّ طبقته ﷺ، ومعرفته، والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق، فإنَّ من تلقى العلوم والحكم، من مثل ذلك الحكيم العليم، يكون علمه في رصانة العلم والحكمة، وهذه الآية كالتمهيد لما يسوق بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ عند مسيره من مدين إلى مصر، في وادي طوى، وقد غشيتهم ظلمة الليل، فبدا له من جانب الطور نار ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي عن حال الطريق، وقد كانوا ضيَّعوه وقوله: ﴿لأهله﴾ يدل على أنه لم يكن مع موسى غير أهله، والجمع للتعظيم مبالغة في التسلية ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي بشعلة نار مقبوسة، أي مأخوذة من أصلها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها، وذلك يدل على حاجة بهم إلى الاصطلاء، وهذا لا يكون إلاّ في برد شديد.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾ أي من جانب الطور ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ أي قُدِّس وجُعلت فيه البركة والخير ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي من في مكان النار، وهي البقعة المباركة المذكورة، في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الوَادِي الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ﴾[1] والمراد بمن في النار الملائكةُ، ومن حول مكانها موسَىٰ عليه السلام ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي ومن حول مكانها، وتصدير الكلام بذلك، بشارة بأنه قد قُضِيَ له أمر عظيم، تنشر بركاته في أقطار هذه البقعة، وقيل هذه تحية من الله تعالى لموسى بالبركة ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك، أي تقدَّس وتنزَّه الرب الجليل، العليُّ الشأن، رب الخلائق أجمعين، وسأل موسى من المنادي فجاءه الجواب.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ذكرُ «العزيز» و«الحكيم» تمهيد للمعجزات التي سيظهرها الله على يديه، أي أنا القوي القادر، الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة، ودقةٍ فائقة.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي نودي أن بورك، وأن ألق عصاك ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هناك محذوف، كأنه قيل: فألقاها فانقلبت حية تسعى، فلما أبصرها متحركة بسرعة ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي حية خفيفة سريعة الحركة ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يرجع على عقبه بعد الفرار، وإنما اعتراه

(١) سورة القصص، آية: ٣٠.

الرعب، لظنه أن ذلك لأمر أُريد به، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي أقبلْ ولا تخف لأنك بحضرة قدسي ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي لا يخافون حين يُوحى إليهم، لأنهم رسلي الذين اصطفيتهم، فإنهم حينئذ مستغرقون في مطالعة شؤونه تعالى، لا يخطر ببالهم خوف من أحدٍ أصلاً، وأما في سائر الأحيان، فهم أخوف الناس منه سبحانه وتعالى، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استثناءٌ منقطع، أي لكنْ من ظلم من سائر الناس وارتكب ذنباً، فإنه يخاف، إلا إذا تاب وبدَّل عمله السيِّىء بالعمل الحسن، فإن الله تعالى عظيم المغفرة، واسع الرحمة له، نبهه تعالى على أنَّ من آمنه الله بالنبوة، لا ينبغي أن يخاف من أحد، لا من جبَّار ولا من حية.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ﴾ أي آفة كبرصٍ ونحوه ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي ضمن تسع معجزات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي مرسلاً إلى فرعون ﴿وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال أي خارجين عن حد الطاعة والإيمان، إلى الكفر والطغيان.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات، وظهرت على يد موسى عليه السلام ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بيِّنةً واضحة، اسم فاعل أُطلق على

المفعول، إشعاراً بأنَّ وضوحها ظاهر، كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يُبصر ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي واضح سحريتها.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي كذَّبوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ الواو للحال، أي وقد استيقنتها أي علمتها ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ علماً يقينياً ﴿ظُلْمًا﴾ أي ظلماً من أنفسهم حيث سموها سحراً ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي استكباراً عن الإيمان بها ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر بعين الاعتبار، نهاية أولئك الطاغين، من الإغراق ثم الإحراق.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ أي لقد أعطينا داود وابنه سليمان عليهما السلام، علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، علم كلام الطير، والنمل، والدواب، وخصصناهما بخصائص جليلة من تسخير الإنس والجن والشياطين، ووهبناهما مع النبوة المُلك، فضلاً منا ونعمة، أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم، من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص بكل منهما ﴿وَقَالَا﴾ أي كل منهما شكراً لما أُوتيه من العلم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فُضِّلنا بما أُوتينا من العلم، على كثير من الخلق، وفيه دليلٌ على فضل العلم، وشرف أهله، حيث شكرا على العلم، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من المُلْك، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى، على ما آتاهم

من فضله، ويتواضعوا، ويعتقدوا أنهم وإن فُضِّلوا على كثير، فقد فُضِّل عليهم كثير، وفوق كل ذي علم عليم.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ أي ورثه النبوة والعلم، دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر ﴿وَقَالَ﴾ تشهيراً لنعمة الله بذكر المعجزات التي أوتيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ المنطقُ: كل ما يُصوَّت به، يقال: نطقتِ الحمامةُ، وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم بأصواته، والذي علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير، هو ما يفهم بعضه من بعض، أي عُلّمنا فهْمَ ما يقوله كلُّ طائر، وعرفنا صوت كل حيوان، حكي أنه عليه السلام مرَّ ببلبل يشدو ويرقص، فقال لأصحابه أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله أعلم! قال: يقول: أكلتُ نصف ثمرة، فعلى الدنيا العَفَاءُ، أي الانقراض والفناء، وصاح طاووس فقال: يقول: كما تَدِينُ تُدان، وصاح خُطَّاف فقال: يقول: قدِّموا خيراً تجدوه، والمراد بكل شيء كثرةُ ما أُوتي، وقال ابن عباس رضي الله عنه: كل ما يهمُّه من أمور الدنيا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي هو فضل وإحسان من الله تعالى واضح علينا، قاله شكراً لا فخراً.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ أي جُمع له عساكره من الجن، والإنس، والطير، وتقديم الجن في البيان، للإيذان بكمال قوة سلطانه، لما أن الجنَّ عاتيةٌ، بعيدةٌ من الحشر والتسخير ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أوائلهم على أواخرهم، ليكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ واد في الشام كثير النمل، والمراد بالإتيان عليه قطعُه، أي أشرفوا على قطع الوادي واجتيازه ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جواب إذا كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي، فرَّتْ منهم، فصاحت صيحة نبَّهت بها النمل، فتبعها في الفرار، فشبّه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم، ولهذا أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ ولا يمتنع أن يخلق الله فيها النطق، وفيما عداها العقل والفهم ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهيٌ في الحقيقة للنمل، عن التأخر في دخول مساكنهم، وإن كان يحسب الظاهر نهياً له عليه السلام عن الحَطْم، كقولهم: لا أرينَّك ههنا، أي لا يدوسنكم ويكسرنكم جنود سليمان بأقدامهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم، ولا يريدون إهلاككم عن عمد، كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الإيذاء والظلم فقالت ذلك[1].

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) نبَّهت هذه النملة، ثم حذَّرت، ثم اعتذرت بقولها: ﴿وهم لا يشعرون﴾ لأنها علمت أنه نبيٌّ رحيم، لا يصدر منه ومن جنوده الأذى عن عمد، فيالها من نملة ذكية، فقولها: ﴿يا أيها النمل﴾ تنبيه: ﴿ادخلوا مساكنكم﴾ إرشاد: ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ تحذير: ﴿وهم لا يشعرون﴾ اعتذار، وهذا غاية الفهم والعقل!! والنمل تعرف كثيراً من منافعها، ومن ذلك أنها تكسر الحبة قطعتين لئلا تنبت، وإذا وصلت النداوة إلى الحبة، تخرجها من جحرها إلى الشمس حتى تجفَّ، فسبحان من ألهمها الفهم والذكاء!!.

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ يعني تبسم شارعاً في الضحك، بمعنى أنه قد تجاوز حد التبسم، وأكثر ضحك الأنبياء التبسم، تبسَّم تعجباً من حذرها، واهتدائها إلى تدبير مصالحها، ومصالح بني جنسها، وابتهاجاً بما خصَّه الله تعالى به، من إدراك همسها، وفهم مرادها ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ أي اجعلني أَزَعُ شكر نعمتك عندي، وأربطه بحيث لا ينفك عني، حتى لا أنفكَّ عن شكرك أصلاً، أدرج فيه ذكر أبويه تكثيراً للنعماء، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجبٌ للشكر ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أي وفقني لعمل الخير والصالحات، إتماماً للشكر، واستدامة للنعمة ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي في جملتهم، أدخلني الجنة التي هي دار الصالحين.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ أي تعرَّف أحوال الطير، فلم ير الهدهد بينها ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ أي ما لي لا أراه ههنا؟ لساترٍ سَتَره؟ ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾؟ أي بل هو غائب ذهب بغير إذني.

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قيل كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه، وقيل: بالتفريق بينه وبين إلفه ﴿ أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ ليعتبر به أبناءُ جنسه ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة تبيِّن عذره، قيل: إنه عليه السلام، لما أتم بناء بيت المقدس، تجهز للحج بجنده، فوافى الحرم، وأقام به ما شاء، ثم عزم على السير إلى اليمن، فوافى صنعاء،

فرآها أرضاً حسنة، فنزل ليصلّي بها، ولم يجد الماء، فكان الهدهدُ رائدَه، لأنه يحسن طلبَ الماء، فتفقَّده لذلك فلم يجدْه.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي مكث زماناً غير مديد، يريد به الدلالة على سرعة رجوعه، فلما رجع حدَّثه عما لقي في غيبته ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي علمتُ ما لم تعلم، وبلغتُ ما لم تبلغ أنت ولا جنودك، ولاخفاء في أنه لم يرد الإحاطة بحقائق العلوم، حتى يكون إثباتها لنفسه، بين يديْ نبيِّ الله تجاوزاً عن دائرة قدره، بل أراد به الأمور المحسوسة، التي لا تعد الإحاطة بها فضيلة، والغفلة عنها نقيصة، لعدم توقف إدراكها على العلم، بل على مجرد الإحساس وقد علم أنه عليه السلام لم يشاهده، فعبَّر عنه بما ذكر، لترويج كلامه عنده، وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي بخبرٍ خطيرٍ محقَّق، فسَّر إبهامه، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له، حيث عبَّر عنه بالنبأ، الذي هو الخبر الخطير، و«سبأ» اسم لحيٍّ سمُّوا باسم أبيهم الأكبر، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، ثم أنشأ يخبره عما رأى من عجائب فقال:

﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك، وكان أبوها ملك اليمن، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت بعده على المُلْك، ودانت لها الأمة، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس

والكواكب ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من الجند، والخيل، والمال ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي لها سرير ضخم مكلل بالدر والياقوت، واستعظامُ الهدهد لعرشها، مع ما كان يشاهده من ملك سليمان، لما مرَّ من ترغيبه في الإصغاء إلى حديثه، وتوجيه عزيمته عليه السلام لقتالها، ولذلك عقَّبه بما يوجب غزوها، لكفرها وكفر قومها، حيث قال:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ أي يعبدون الشمس ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يعبدون ويسجدون لها من دون الله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي هي عبادة الشمس وسجودهم لها، والسير في طريق الضلال ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد متعجباً:

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي أيسجدون للشمس، ولا يسجدون لله الخالق العظيم؟ ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يُظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما، وهو يتناول جميع الأرزاق، والأشياء، وتخصيصُ هذا الوصف بالذكر، لما أنه أرسخ في معرفته تعالى، والإحاطة بكمال القدرة والعلم، بمشاهدة آثاره التي من جملتها ما أودع الله في الهدهد من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض، والخَبْءُ: ما خفي في غيره، وإخراجه: إظهارُه ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي ويعلم السرَّ والعلن، لا تخفى عليه

خافية، إلى أنه تعالى يخرج ما في الإنسان من الخفايا، كما يخرج ما في العالم من الخبايا، وإلى هنا انتهى حديث الهدهد.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾؟ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، ربُّ العرش العظيم، الذي أحاط بالكرسي وبالسماوات والأرض، المستحق للعبادة والسجود، فكيف يتركون عبادة هذا الخالق، العظيم الشأن، إلى عبادة الشمس من دون الله؟ وخصَّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات، فهو أعظم من السماوات والأرض وما بينهما، وإذا كان الكرسي قد أحاط بالسماوات والأرض بنص القرآن الكريم ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ وهو بالنسبة إلى العرش كحلقةٍ ألقيت في صحراء، لا يعلم مداها إلا الله، فكيف بالعرش العظيم؟ ولهذا وُصف بالعظيم في آيات كثيرة كقوله سبحانه: ﴿قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم﴾؟

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ فيما ذكرتَه من النظر بمعنى التأمل أي سنتعرَّف بالتجربة ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾؟ هل أنت صادق أم كاذب فيما تقول؟ ومساق هذه الأقاويل على ترتيب أنيق، يستميل قلوب السامعين، فكتب سليمان عليه السلام كتاباً إلى بلقيس ملكة سبأ، ثم دفعه إلى الهدهد، وقال له:

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا ﴾ أي اذهب بهذا الكتاب، وأوصله إلى ملكة سبأ

وجندها، وتخصيصُه إياه بالرسالة، دون غيره من أبناء الجن الأقوياء، لما عاين فيه من مخايل العلم والفراسة، ولئلا يبقى له عذرٌ أصلاً ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنحَّ إلى مكان قريب، تتوارى فيه ﴿فَانظُرْ﴾ أي تأمل وتعرَّفْ ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وصورة الكتاب «من عبد الله سليمان بن داود، إلى ملكة سبأ، بسم الله الرحمٰن الرحيم، السلام على من اتَّبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ وائتوني مسلمين» وطبعه بالمسك وختمه.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالَتْ﴾ أي بعدما ذهب الهدهد بالكتاب، فألقاه إليها، وتنحى عنهم حسبما أُمر به، وإنما طوى ذكره إيذاناً بكمال مسارعته إلى ما أمر به وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره، روي أنه وجدها راقدة في قصرها، وغلَّقت الأبواب، فدخل في كوة، وطرح الكتاب على نحرها، فانتبهت فزعة، وكانت قارئة، فلمَّا رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، فعند ذلك قالت لأشراف قومها ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وصفته بالكرم لكونه من عند ملك كريم.

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ استئناف وقع جواباً لسؤال مقدَّر، كأنه قيل: ممن هو؟ وماذا مضمونه؟ فقالت: إنه من سليمان ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أي مكتوب فيه.

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أي لا تتكبروا عليَّ كما يفعل جبابرة الملوك ﴿وَأْتُونِي

مُسْلِمِينَ ﴾ أي مؤمنين، مستسلمين لدعوة الله، وهذا الكلام في غاية الوجازة، مع كمال الدلالة على المقصود، وكذلك جميع كتب الأنبياء، لأنهم أُعطوا بياناً وحكمة، والمعنى: لا تمتنعوا من الإجابة، فإنَّ تركها من العلوّ والتكبر.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ أي أجيبوني في أمري الذي قد أهمني، وعبَّرت عن الجواب بالفتوى، تهويلاً للأمر ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ أي من الأمور المتعلقة بالملك ﴿ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أي إلاَّ بمحضركم قالت ذلك استمالةً لقلوبهم، لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير.

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ في جوابها ﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ ﴾ في الأجساد، والآلات، والعدد ﴿ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي نجدة وشجاعة في الحرب ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ أي هو موكولٌ إليك ﴿ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾؟ نكن في الخدمة مطيعين لأمرك، فلما أحسَّت منهم الميل إلى الحرب، شرعت في تزييف مقالتهم، المبنية على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً ﴾ من القرى عنوة على منهاج الحرب

﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب عمارتها، وإتلاف ما فيها من الأموال ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بالقتل، والأسر، والطرد من الوطن وغير ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصف من حالهم، بأن ذلك من عاداتهم المستمرة.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ تقرير لرأيها، بعدما زيَّفت آراءهم، أي وإني سأرسل إليهم رسولاً بهدية ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال، كانت بلقيس امرأةً لبيبة عاقلة، قد ساست الأمور وجربتها فبعثت «منذر بن عمرو» وضمَّتْ إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل ورأي، وأرسلت معهم هدية ثمينة، جارية وتاجاً مكلّلاً بالدر والياقوت وقالت: إن كان نبياً ردَّ الهدية ولم يأخذها، ولم نأمنه على بلادنا، وإن كان مَلِكاً أخذ الهدية وسكت.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ أي الرسول ﴿سُلَيْمَٰنَ قَالَ﴾ مخاطباً للرسول، والمرسِل، تغليباً للحاضر على الغائب، وتعميمها لبلقيس وقومها، مع تشديد الإنكار ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ وهو إنكار لإمدادهم إياه بالمال، مع علو شأنه، وسعة سلطانه، أي أتصانعوني وتغرونني بالمال؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ مما رأيتم آثاره من النبوة والملك ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي من المال الذي أعطاكم إياه، فلا حاجة لي إلى هديتكم ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عما ذكر من إنكار الأموال، إلى التوبيخ بفرحهم فرح افتخار وامتنان، أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ ٱرۡجِعۡ ﴾ أيها الرسول ﴿ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم بمقاومتها ﴿ وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ ﴾ أي من سبأ ﴿ أَذِلَّةٗ ﴾ أي حال كونهم أذلة ﴿ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ أي أسارى مُهانون.

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام لمَّا دنا مجيء بلقيس إليه، يروى أنه لما رجعت رسلها إليها، وأخبروها بما ردَّ عليهم سليمان، قالت: قد علمتُ والله ما هذا بمَلِك، ولا لنا به من طاقة، وبعثتْ إلى سليمان: إني قادمة إليك بعظماء قومي حتى أنظر ما أمرك؟ فأراد عليه السلام أن يريها بعض ما خصَّه الله تعالى به من العجائب، الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوى النبوة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾؟ أي قال سليمان لأشراف من حضره من جنده، أيكم يأتيني بسريرها المرصَّع بالجواهر، قبل أن تصل إليَّ مع قومها مسلمين؟ وأراد بذلك إطلاعها على بدائع المعجزات، في أول مجيئها.

﴿ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ أي قال مارد من مردة الجن ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ أي من مجلسك للحكومة، وكان يجلس للحكومة، إلى نصف النهار، أي أنا آتي به في أقل من نصف نهار ﴿ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ ﴾ لا يثقل عليَّ حمله ﴿ أَمِينٞ ﴾ على ما فيه من الجواهر والنفائس.

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ ﴾ أي قال بعض الصالحين من أتباع سليمان، وهو «آصف بن برخيا» وكان رجلاً صدِّيقاً يقرأ الكتب الإلٰهية، ويعلم الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب: أنا آتيك بعرشها [1] قبل تحريك جفنك للنظر إلى شيء، وهذا غاية في الإسراع ومَثَلٌ فيه، ولما لم يكن بين هذا الوعد وإنجازه مدة استغنى عن التأكيد، وطوى ذكر الإتيان به، وجيء بالفاء الفصيحة حيث قيل ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ أي رأى العرشَ حاضراً لديه، ﴿ قَالَ هَٰذَا ﴾ أي حضور العرش في المدة القصيرة ﴿ مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ [2] أي تفضله عليَّ من غير استحقاق منِّي ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ ﴾ أي ليختبرني أأشكر إنعامه، وأقوم بحقه ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ۖ ﴾ أم أجحد فضله وإحسانه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴾ أي منفعة الشكر لنفسه، لأنه يستجلب به المزيد كما قال سبحانه: ﴿ لئن

---

(١) فإن قيل: كيف قدر على الإتيان بالعرش مع أنه غير نبي؟ الجواب يجوز أن يُخصَّ غيرُ النبي بكرامة، كما خُصت مريم، بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة، وزكريا لم يُرزق منها، ولم يلزم من ذلك فضلها على زكريا، مع أن كرامة التبع من جملة كرامة المتبوع.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٦٧٢: ومن ههنا يظهر أن سليمان عليه السلام أراد بإحضار هذا السرير، إظهار عظمة ما وهب الله له من المُلك، وما سخَّر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحدٍ من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم، أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها، قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، قال آصف كاتب سليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فإذا هو حاضر عنده. اهـ.

شكرتم لأزيدنكم﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بترك تعجيل العقوبة، وبالإنعام عليه مع ترك الشكر، ولمَّا قرُب وصول ملكة سبأ إلى بلاده، أمر بأن تُغيَّر بعض ملامح عرشها امتحاناً لها.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿نَكِّرُوا۟﴾ أي غيِّروا هيئته بوجهٍ من الوجوه ﴿لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلى معرفته ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟ أي أم لا تهتدي إلى معرفة عرشها الذي نقلناه، وأراد بذلك اختبار عقلها وذكائها.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ بلقيسُ سليمان، عليه السلام، وقد كان العرشُ بين يديه ﴿قِيلَ﴾ من جهة سليمان بالذات، أو بالواسطة ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾؟ لم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير، من مغايرة بعض صفاته مع اتحاد الذات ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ فأنبأت عن كمال فهمها، ورجاحة عقلها، حيث لم تقل: هُوَ، هُوَ ولم تقطع وتجزم بأنه غيره ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من تتمة كلامها، كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها، وإظهار معجزة لها، فقالت: أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك، من قبل هذه المعجزة، التي شاهدناها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من ذلك الوقت[1]، وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ما لا يخفى.

---

(١) هذا القول مرجوح، والأصح والأظهر ما قاله مجاهد، أنه من قول سليمان عليه السلام، أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة، العلمَ بالله =

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَصَدَّهَا ﴾ أي صدَّها ومنعها من التقدم إلى الإسلام، عن عبادتها القديمة للشمس ﴿ مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ أي إنها كانت من قوم راسخين في الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها، وهي بين ظهرانيهم، إلى أن دخلت تحت ملك سليمان.

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ ﴾ وهو القصر الفخم، وكلُّ بناءٍ عالٍ مرتفع يسمى صرحاً، أي قيل لبلقيس: ادخلي هذا القصر المنيف المشيد، روي أنه عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى قصراً صحنه من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء وألقى فيها السمك ونحوه، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماءً ﴿ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ ﴾ أي ظنته لُجَّة ماء، ـ أي ماءً غمراً كثيراً ـ وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه لئلا تبتل أذيالها ﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ ما توهمته ماءً ﴿ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ ﴾ أي مملس مسوَّى ﴿ مِّن قَوَارِيرَۗ ﴾ أي من الزجاج، والقارورة: إناء من زجاج جمعها قوارير ﴿ قَالَتۡ ﴾ حين عاينت تلك الخارقة ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي ﴾ بما كنت عليه من الشرك بعبادة الشمس ﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾ تابعة له، فدخلت في الإسلام، كما أسلم سليمان

= وبوحدانيته وقدرته، وكنا مسلمين لله قبلها، فنحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً، وهي كانت قد صدَّها ومنعها من عبادة الله وحده، ما كانت تعبد من دون الله لأنها كانت من قوم كافرين، وهذا ما اختاره شيخ المفسرين ابن جرير، والحافظ ابن كثير، قال: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح. اهـ.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وصفه بالربوبية لإظهار تفرده تعالى لاستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ اللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب وهو نبي الله صالح عليه السلام، يدعوهم إلى الله، وقد كانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله رب العالمين، الذي لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ففاجئوا التفرق والاختصام، حيث آمن فريق، وكفر فريق.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للفريق الكافر منهم، بعدما شاهد منهم نهاية العتو والعناد ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي لمَ تستعجلون بالعقوبة السيئة، فتقولون ائتنا بما تعدنا؟ ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾ أي قبل التوبة فتأخرونها إلى حين نزول العذاب؟ وقد كانوا لجهلهم يقولون: إن وقع إيعادُه، تُبنا حينئذ، وإلا فنحن على ما كنا عليه ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي هلاَّ تستغفرون الله تعالى قبل نزول العذاب ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبول التوبة، إذ لا إمكان للقبول عند نزول عذاب الله.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ أي تشاءمنا بك وبأتباعك المؤمنين،

وأصله تطيَّرنا أي تشاءمنا، وكانوا قد تتابعت عليهم الشدائد، وأصابهم القحط والجوع حتى كادوا يهلكوا، فلذلك تشاءموا من دعوته ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ أي السبب الذي ينالكم ما ينالكم من الشر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو عملكم السَّيِّىء المكتوب عنده، فهو سبب شؤمكم لا نحن ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم، ولذلك تقولون ما تقولون!!.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ ديار ثمود وهي الحِجْرُ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة أشخاص وهم الذين سعَوْا في عقر الناقة، وكانوا عُتاة مغرقين في الإجرام ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا في المدينة فقط، شأنهم الإفسادُ وإيذاء العباد، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي لا يفعلون شيئاً من الإصلاح، وبعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي قال بعضهم لبعض، في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام، وكان ذلك عندما أنذرهم بالعذاب ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي تحالفوا بالله على قتله، مقول لقالوا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي لنباغتن صالحاً وأهله ليلاً لنقتلهم، والبياتُ مهاجمة العدو ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي ولي صالح عليه السلام ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي ما حضرنا محل هلاكهم، فضلاً أن نتولى إهلاكهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ من تمام القول أي ونحلف لهم إنا لصادقون قال ابن عباس: أتوا دار صالح عليه السلام شاهرين سيوفهم ليقتلوه، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم.

﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا ﴾ أي دبروا مكيدة لقتل صالح عليه السلام ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم[1] ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ من حيث لا يحتسبون.

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿ فَٱنظُرْ ﴾ أي فتفكر ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ، روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحِجْر، في شِعْبٍ يصلي فيه، فخرجوا إلى الشِّعْبِ وقالوا: إذا جاء ليصلي قتلناه، فبعث الله صخرة من الهضاب، فطبَّقت الصخرة على فم الشِّعب، فلم يدر قومهم أين هم؟ ولم يدروا ما فُعل بقومهم؟ وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة.

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ أي خالية وساقطة متهدمة يقال: خَوَت

---

(١) المكر من الله بمعنى الجزاء، أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، سمَّاه مكراً بطريق المشاكلة، كقوله سبحانه: ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها﴾ مع أن ردَّ العدوان، والانتصاف من الظالم، ليس قبيحاً، فهو مجرد اتفاق في اللفظ مع اختلاف في المعنى، قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٦٧٥: أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، واتفقوا على قتله غِيلةً ليلاً، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. اهـ.

الدارُ، أي خلت من أهلها، وخوت النجوم سقطت ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي بسبب ظلمهم المذكور ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكِرَ من التدمير ﴿لَأٓيَةً﴾ أي لعبرة عظيمة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يتصفون بالعلم والفهم.

﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣﴾.

﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي اتقاءً مستمراً فلذا نجوا.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤﴾.

﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي الفعلة المتناهية في القبح ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ جملة حالية لتأكيد الإنكار، فإن تعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع، أي تفعلونها والحال إنكم تعلمون بكونها كذلك، وقيل: يبصرها بعضكم من بعض، لما كانوا يعلنون بها.

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾.

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾ تكرير للتوبيخ، وبيان لما يأتونه بطريق التصريح ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ أي متجاوزين النساء ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أي تفعلون فعل الجاهلين بقبحه وعاقبته، أو الجهل بمعنى السفاهة، أي بل أنتم قوم سفهاء، لا تميزون بين الحسن والقبيح.

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا ﴾ أي قدَّرنا إنها ﴿ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين في العذاب لأنها كافرة.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء متتابعة، كانت تنزل عليهم كالمطر عند انصبابه، فأهلكناهم بالصيحة والحجارة، فبئس هذا العذاب الذي أمطروا به، وهو حجارة من سجّيل منضود.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ﴾ بعد أن قصَّ الله تعالى على رسوله قصص الأنبياء عليهم السلام، وبيَّن على ألسنتهم حقّية الإيمان، وبطلان الكفر، وأن من اقتدى بهم اهتدى، ومن أعرض عنهم تردَّى، أمر رسوله محمداً ﷺ بأن يحمده تعالى، على ما أفاض عليه من تلك النعم فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ ﴾؟ أي هل الله الذي ذُكرت شؤونه، الخالق المبدعُ، الحكيمُ، خيرٌ أم الأصنام التي عبدوها؟ ﴿ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؟ أي ما يشركونه به تعالى من الأصنام والأوثان؟ والغرضُ تبكيتُ الكفرة، وتسفيهُ آرائهم، إذ من البيِّن أنه ليس فيما أشركوا به شائبة خير حتى يوازن بينه وبين من لا

خير إلاَّ خيره، ولا إله غيره، وكان ﷺ إذا قرأها قال: «بل الله تعالى خيرٌ وأبقى، وأجلُّ وأكرم».

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أم منقطعة، والمعنى: بل أم من خلق السماوات والأرض، وأبدع الكائنات بجميل صنعه، وباهر قدرته؟ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي لأجلكم ومنفعتكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي مطراً ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي ذات حسن ورونق، يبتهج به النُّظَّار ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ أي ما صحَّ وما أمكن لكم ﴿أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ فضلاً عن ثمرها، وسائر صفاتها البديعة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ أي أإله آخر مع الله حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة؟ وهذا تبكيت آخر لهم، حيث يسوُّون بين الخالق الرازق، والصنم الأصم، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي بل قوم عادتهم العدول عن طريق الحق، والانحراف عن الاستقامة.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؟ بحيث يستقر عليها الإنسان، والدواب، بإبداء بعضها من الماء، وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم، وجعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ جارية ينتفعون بها ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها معادن، وينبع في حضيضها الينابيع، ويتعلق بها من المصالح ما لا يُحصى

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة، فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد ماء البحار ماء الأنهار ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ في الوجود، وفي إبداع هذه البدائع؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون الحقَّ فيشركون مع الله غيره، ولا يفهمون أن ما هم عليه من الشرك باطل.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أحوجته شدةٌ من الشدائد، ونوازل الدهر، إلى الضراعة إلى الله تعالى، واللام للجنس، لا الاستغراق، حتى يلزم إجابة كل مضطر ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان مما يسوء، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما بالإنسان من فقر إلى غنى، ومرض إلى صحة، وضيق إلى سعة، إلا القادر على كل شيء ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الذي يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسام ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً تتذكرون.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؟ أي في ظلمات الليالي فيهما، في الأسفار والقفار، ومشتبهات الطرق، يقال: طريقة ظلماء وعمياء، للتي لا منار بها ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وهي المطر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الذي دبَّر أمور هذه العوالم بحكمته، وأبدع خلقها بقدرته؟ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس المنفرد بالألوهية عما يشركون معه من حجارة صماء، لا تسمع ولا تستجيب، وسواء من دحاها أو رجاها.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؟ بعد الموت بالبعث؟ والكفرةُ وإن أنكروا الإعادة، فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ أي بأسباب سماوية وأرضيّة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾؟ حتى يجعل له شريكاً في العبادة؟ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ في تلك الدعوى.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ بعدما حقَّق تفرده بالألوهية، ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة، والرحمة الشاملة، عقبه بذكر اختصاصه بعلم الغيب، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي متى يُنشرون من القبور، والضمير للكفرة.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ أصله تدارك ومعناه: تلاحق وتدارك، بمعنى جهلوا علمها، ولا علم عندهم من أمرها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بذلك أصلاً، ثمَّ أضرب عن بيان عدم علمهم، إلى بيان ما هو أسوأ منه، وهو حيْرتُهم في ذلك حيث قيل ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ﴾ من نفس الآخرة كمن تحيَّر في أمر لا يجد عليه دليلاً، ثم أضرب عن ذلك إلى بيان ما هم فيه أشد وأفظع من الشك، حيث قيل:

﴿عَمُونَ﴾[1] بحيث لا يكادون يدركون دلائلها، لاختلاف بصائرهم بالكلية، وفيه نُكتة، وهي أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم، فلذلك عدَّاه «بمن» دون «عن» لأن الكفر بالعاقبة والجزاء، هو الذي جعلهم كالبهائم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بيان لجهلهم بالآخرة، وعماهم عنها، والمراد بهم كفار مكة، ووضعُ الموصول موضع ضميرهم، لذمّهم، والإشعار بعلة حكمهم الباطل في قولهم ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾؟ أي أنخرج من القبور إذا كنا تراباً؟.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي لقد وَعَدنا محمد بالبعث، كما وُعد آباؤنا من قبله في الأزمنة المتقدمة، ثم لم يُبعثوا ولن يُبعثوا، ولو كان البعث حقاً لحصل ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلاَّ خرافات وأساطير الأولين، سطَّروها وكتبوها كذباً.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي تفكّروا واعتبروا كيف صار مآل المكذبين المجرمين؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم؟.

---

(١) خلاصة معنى الآية: أن المشركين لا يصدِّقون بالآخرة، وهم شاكُّون في وقوعها ووجودها، بل هم في عماية وجهلٍ كبير بأمرها، فلماذا يسألون عن الساعة، وهم لا يؤمنون ولا يصدِّقون بالآخرة؟.

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ ﴾ أي في حرج صدر ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم، فإن الله يعصمك من الناس.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ أي العذاب العاجل الموعود ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في إخباركم بإتيانه، والجمع باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ أي تبعكم ولحقكم، واللامُ مزيدةٌ للتأكيد، و«عسى» و«لعل» و«سوف» في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار، وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم، كالتصريح ممن عداهم، وعلى ذلك جرىٰ وعدُ الله ووعيدهُ ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي ما تتعجلونه من العذاب.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي لذو إفضالٍ وإنعام على الناس، ومن جملة إنعامه تأخير عقوبة هؤلاء، على ما يرتكبونه من المعاصي ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لا يعرفون حق النعمة فلا يشكرونه، بل يستعجلون بجهلهم وقوعه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي ما تخفيه قلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الأفعال والأقوال، التي من جملتها استعجال العذاب، فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، ولكنْ له وقتٌ مقدَّر، وفيه إيذان بأن لهم قبائح غير ما يظهرونه، وأنه تعالى يجازيهم على الكل.

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ ﴾ أي من خافية ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ سمِّي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة، وخافية، والتاء للمبالغة، كالعاقبة والعافية ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من الدين، ومن جملته ما اختلفوا في شأن المسيح، وتحزبوا فيه أحزاباً، وركبوا متن العتوّ والغلوّ، في الإفراط والتفريط، ووقع بينهم التناكر في أشياء، كأحوال الجنة، والنار، وعزير، والمسيح، حتى بلغ المشاقة، إلى حيثُ لعنَ بعضُهم بعضاً، وقد نزل القرآن الكريم ببيان الحقائق القاطعة.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وإن القرآن لهداية لقلوب أهل الإيمان، ورحمة لهم.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ أي بين بني إسرائيل ﴿ بِحُكْمِهِۦ ﴾ أي بحكمته وبعدله ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فلا يرد حكمه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بجميع الأشياء.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ الذي هذا شأنه ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق، الواضح المنير، والعاقبة لك بالنصر على أعدائك.

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالموتى، لا حسَّ لهم ولا فهم ولا عقل، وإنما شُبِّهوا بالموتى، لعدم تأثرهم بما يُتلى عليهم ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ أي الدعوة إلى أمر من الأمور، وتقييد النفي بقوله تعالى: ﴿ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ لتكميل التشبيه، وتأكيد النفي، فإنهم مع صَمَمهم معرضون عن الداعي، مولُّون أدبارهم، فسماعهم في هذه الحالة أبعد.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ ﴾ أي وليس بوسعك أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم، والآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فإن الاهتداء منوط بصفاء القلب ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما تُسمع سماعاً يُجدي السامع نفعاً ﴿ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي إلا من يصدِّق وينقاد لأمر الله، ويؤمن بآياته ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ مخلصون لله جلَّ وعلا من قوله سبحانه: ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾ أي أخلص في إيمانه وعمله.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ المراد بالقول: مجيء الساعة، وما فيها من الأهوال، التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه: قيامها وحصُولُها وقد يراد بالوقوع دنُوُّها، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي إذا دنا وقَرُب وقت قيام الساعة، وظهرت أمارات القيامة، التي كانوا يكذبون بها ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الجسَّاسة، وفي التعبير عنها باسم الجنس، وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمي ﴿دَآبَّةً﴾ من الدلالة على غرابة شأنها، روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوعَ الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، أو خاصَّةَ أحدكم، أو أمرَ العامة»[1] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول الآيات خروجاً، طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثْرِها قريباً[2]» ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي تكلمهم بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله، الناطقة بمجيء الساعة، قيل: تكلمهم بالعربية الفصحى، بلسان عربي فصيح فتقول: ألا لعنةُ الله على الظالمين، الذين لا يؤمنون بآيات الله، وتكلّمهم ببطلان الأديان، سوى دين الإسلام، ووصفُهم بعدم الإيقان، مع أنهم كانوا جاحدين بها، للإيذان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها، ويعتقدوا بصحتها.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في كتاب الفتن.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤١ في الفتن أيضاً وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣١٠.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ المراد بهذا الحشر، هو الحشر للعذاب، بعد الحشر لكافة الخلق، أي واذكر لهم وقت جمعنا من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم السلام، جماعة كثيرة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أي فوج المكذبين بها ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا في موقع التوبيخ والمناقشة.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ أي إلى موقف السؤال ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى موبخاً لهم ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى ﴾؟ الناطقة بلقاء يومكم هذا؟ ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا ﴾؟ جملة حالية مؤكدة للإنكار، أي أكذبتم بها بادي الرأي، غير ناظرين فيها نظراً، يُؤدّي إلى العلم بكنهها؟ وهذا نص في أن المراد بالآيات فيما سلف، هي الآيات القرآنية، لأنها منطوية على دلائل الصحة، وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علماً ﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي أم أيَّ شيءٍ كنتم تعملون في الدنيا؟ كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والتكذيب، مع أنهم ما خلقوا إلا للإيمان والطاعة، يُخاطبون بذلك تبكيتاً، ثم يُكبُّون في النار.

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم ﴾ أي حلَّ بهم العذاب، الذي كانوا ينكرونه ﴿ بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾ أي بسبب ظلمهم، وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ باعتذار، لانقطاعهم عن الجواب بالكلية، وابتلائهم بشغل شاغلٍ من العذاب الأليم.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ ﴾ الرؤيةُ قلبية لا بصرية، أي ألم يعلموا أنَّا جعلنا الليل، بما فيه من الإظلام ﴿ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أي ليستريحوا فيه بالنوم والقرار ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي ليبصروا بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب في أمور المعاش، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ في جعلهما كما وُصفا ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾ كثيرة عظيمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ دالة على صحة البعث، وصدق الآيات الناطقة به، دلالةً واضحة، كيف لا، فإنَّ من تأمَّل في تعاقب الليل والنهار، وشاهد تبدل الظلمة المحاكية للموت، بضياء النهار المضاهي للحياة، قضى بأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، وخصَّ المؤمنين بالذكر ﴿لَآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بتلك الدلائل الكونية.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ نفخة الفزع[1] ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ المراد به ما يعتري الكلَّ عند البعث، بمشاهدة الأمور الهائلة، من الرعب والهول، أي لا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلاَّ خاف وفزع، وإيراد الماضي (ففزع) للدلالة على تحقق وقوعه إثر النفخ ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن لا يفزع من الملائكة، والأنبياء، والشهداء ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي كل واحد من المبعوثين عند النفخ ﴿ أَتَوْهُ ﴾ أي حضروا الموقف للسؤال ﴿ دَٰخِرِينَ ﴾ أي صاغرين، ذليلين.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٦٨٤: وهذه «نفخة الفزع» ثم بعد ذلك «نفخة الصعق» وهو الموت، ثم بعد ذلك «نفخة القيام لرب العالمين» وهو النشور من القبور لجميع الخلائق. أ هـ وعلى هذا القول يكون النفخ في الصور ثلاثاً، والله أعلم.

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾ وقت النفخة ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي ثابتة في مكانها، من جَمَدَ في مكانه إذا لم يبرحه ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ ﴾ أي في السرعة، تراها رأي العين ساكنة والحال أنها تمرُّ مرَّ السحاب، تسيِّرها الرياحُ سيراً حثيثاً، وذلك أن الأجرام العظام، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركاتها، وهذا ممَّا يقع بعد النفخة الثانية، عند حشر الخلق، ليشاهدها أهل المحشر[1]، وهي وإن اندكت وتصدَّعت عند النفخة الأولى، لكنْ تسييرها بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لاَ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾[2] ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أي صَنَعَ الله ذلك صُنْعاً ﴿ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ أي أحكم خلقه، وسوَّاه على ما تقتضيه الحكمة، المستتبعة للغاية الجميلة ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ تعليل لكون ما ذكر صنعاً محكماً له تعالى، ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها،

---

(١) في هذا القول نظر، والصحيح أن هذا إنما يكون في الدنيا لا في المحشر، فالآية الكريمة تشير إلى إبداع الله في صنعه وتدبيره، الكواكب، والأرضُ، والشمسُ، والقمرُ، كلها تسبح في هذا الفضاء الواسع، دون أن تنقلب الأرض بمن فيها، أو تصطدم النجوم بعضها ببعض، بدليل قول الله تعالى ﴿كلٌّ في فلك يسبحون﴾ وقوله ﴿صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ﴾ ففي الآية الكريمة إشارة رائعة، إلى حركة الأرض ودورانها، وهي سبق علميٌّ فريد، لم يعرفه البشر إلاَّ في عصر اختراع المراكب الفضائية، التي دارت حول الأرض، ووصلت إلى القمر، وصوَّرت لنا الأرض وهي تشرق وتغرب عليهم، كما تشرق الشمس وتغرب على سكان الكوكب الأرضي، وانظر كتابنا «حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية سبق إليها القرآن» ففيه روائع وبدائع تثبت إعجاز القرآن من الناحية العلمية، وسبقه للمكتشفات والمخترعات العصرية.

(٢) سورة طه، آية: ١٠٥ ـ ١٠٧.

وبيان كيفيتها على ما هي عليه من الحسن والسوء، وترتيب أجزيتها عليها، بعد بعثهم وحشرهم، أي هو تعالى عليم بما يفعل العباد، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي من جاء منكم، يوم القيامة بالحسنة، فله من الجزاء ما هو خير منها، إما باعتبار إضعافها، وإمَّا باعتبار دوامها ﴿وَهُم﴾ أي الذين جاؤوا بالحسنات ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب، بعد تمام المحاسبة، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ وهم آمنون لا يعتريهم ذلك الفزع، ولا يلحقهم ضرره أصلاً، وأما الفزع الذي يعتري كل من في السماوات والأرض، فإنما هو التهيبُ والرعبُ في ابتداء النفخة، من معاينة فنون الدواهي والأهوال، فلا يكاد يخلو منه أحد.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيل: هو الشركُ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي ألقيتْ فيها على وجوههم في النار منكوسين ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي هل تعاقبون وتنالون جزاءكم؟ على إضمار القول، أي تقول لهم خزنة جهنم ذلك ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ في الدنيا من سيىء الأعمال.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أُمِرَ ﷺ أن يقول بعد

ما بيَّن لهم، أحوال المبدأ والمعاد، تنبيهاً لهم على أنه قد أتمَّ أمر الدعوة، بما لا مزيد عليه، ولم يَبْقَ له ﷺ بعد ذلك شأن، سوى الاشتغال بعبادة ربه، غير مبالٍ بهم، ضلُّوا أم رَشَدوا، والبلدة هي «مكة» المعظمة، وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها، وشناعة ما فعلوا فيها، أَلاَ ترىٰ أنها مع كونها محرَّمة، من أن تنتهك حرمتها، باختلاء خلاها، وعضد شجرها، وتنفير صيدها، أنهم قد استمروا فيها على تعاطي أفجر أنواع الفجور، حيث تركوا عبادة ربها، ونصبوا فيها الأوثان، وعكفوا على عبادتها، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً، ومِلكاً، وتصرفاً، من غير أن يشاركه أحد في شيء منها ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي أن أثبت على ما كنت عليه ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الذين أسلموا وجوههم لله خالصة، من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَه لله﴾؟.[1]

﴿وَأَنْ أَتْلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَتْلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أواظب على تلاوته وأن أقرأه على الناس، بطريق تكرير الدعوة، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته في الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ حينئذ بالإيمان به والعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فإنما منافعُ اهتدائه، عائدةٌ إليه لا إلى غيره ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به، والإعراض عن العمل بما فيه ﴿فَقُلْ﴾ في حقه ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار، فليس عليَّ من وباله شيءٌ، وإنما وبالُه على نفس المنكر المكذِّب، إذْ ما على الرسولِ إلاَّ البلاغُ المبين.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٢٥.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أفاض عليَّ من نعماء، التي أجلُّها نعمةُ النبوة ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي سيريكم في الدنيا آياته الباهرة، التي نطق بها القرآن، كخروج الدابة، وسائر أشراط الساعة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا ۚ﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله تعالى، حين لا تنفعكم المعرفة، وقولُه تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلام من جهته تعالى مقرّرٌ لما قبله، ومتضمنٌ للوعد والوعيد. والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل»

* * *

obeikandl.com

سُورَةُ القَصَصِ

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ ﴾ .

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ الواضح إعجازه.

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾ .

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾ أي نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام، لأنه كان يتلوه على الرسول ﷺ حتى يحفظه، ويجوز أن تكون التلاوة مجازاً عن التنزيل ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي بعض نبئها ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالصدق ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تخصيصهم بذلك، لأنهم هم المنتفعون به.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ ﴾ .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تجبر وطغى في أرض مصر، وجاوز الحدود في الظلم ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي فِرَقاً وأصنافاً في استخدامه

وأغرى بينهم العداوة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وذلك أن كاهناً قال له: يولد في بني إسرائيل مولودٌ، يذهب ملكك على يده، وما ذلك إلا لغاية حمقه، إذ لو صدق فما فائدة القتل؟ وإن كَذَب فما وجهه؟ ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي يترك البنات أحياء للخدمة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي الراسخين في الفساد.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نتفضل بإنجائهم من بأسه ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدىٰ بهم في أمور الدين، بعد أن كانوا أتباعاً مسخَّرين للآخرين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي وارثين لملك فرعون وقومه، يرثون ملكهم، ويسكنون مساكنهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ أي نسلطهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاؤون ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ من أولئك المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ ويجتهدون في دفعه، من ذهاب ملكهم، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ما أمكن إخفاءه، وفيه دلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك[1] ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ بأن يحس به الجيران عند بكائه ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ أي في البحر، وهو نهر النيل ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ عليه من الغرق ﴿ وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ عن قريب ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2] تعليل للنهي، أي ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية الجبار.

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ أي فألقته في اليمِّ فالتقطه، أي أخذوه أخذ اعتناء به، وصيانةً له، فنظرت آسية فإذا هي بصبيّ صغير في مهده، فألقى الله محبته في قلبها، وهَمَّ فرعون بقتله، فاستوهبته آسية فتركه لها ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ اللام لامُ العاقبة، أي ليصير الأمر إلى ذلك، أن يصير عدواً لهم لا لأنهم أخذوه لهذا، كقول القائل: «لِدُوا للموتِ، وابنُوا للخراب» ﴿ وَحَزَنًا ﴾ أي سبباً لحزن فرعون وهلاكه ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ في كل ما يأتون وما يذرون، فلا غرو أن قتلوا لأجله ألوفاً، ثم أخذوه يربُّونه، ويفعل الله بهم ما كانوا يحذرون.

---

(١) فإن قيل: ما فائدة الأمر بإرضاعه، والأم بطبيعة الفطرة ترضع ولدها؟ فالجواب أن الله أمر بإرضاعه حتى يألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها.

(٢) هذه الآية: ﴿وأوحينا إلى أم موسى...﴾ من معجزات الإعجاز والإيجاز، لاشتمالها على أمرَيْن، ونهيَيْن، وخبرَيْن، وبشارتين، في أسهل نظم، وأسلس لفظ، وأوجز عبارة، أما الأمران فهما: أرضعيه، وألقيه، والنهيان: لا تخافي، ولا تحزني، والخبران: أوحينا، وخفت، والبشارتان: إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين، فما أبدع هذا الإعجاز.

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ أي قالت لفرعون حين أخرجته من التابوت، وخاطبته بلفظ الجمع ﴿لا تقتلوه﴾ تعظيماً، ليساعدها فيما تريده ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم، فيما صنعوا من الالتقاط، وأن هلاك فرعون وأتباعه سيكون على يدي هذا الغلام.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ أي خالياً من العقل لما دَهَمها من الخوف والحيرة، حين سمعتْ بوقوعه في يد فرعون[1]، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ وهو قول صاحب الكشاف، وقيل: فارغاً من الهمِّ والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى، وهو قول أبي عبيدة، أو لسماعها أن فرعون عَطَف عليه وتبنَّاه وهو قول أبي مسلم ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي إنها كادت لتظهر أمر موسى، وأنه ابنها، من فرط الحيرة والدهشة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بإلهام الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من المصدِّقين بوعد الله، الواثقين بحفظه تعالى لهذا الوليد.

---

(١) وقيل إن المعنى: أن قلبها صار خالياً من كل شيء في الدنيا، إلا من ذكر ولدها موسى، لم يعد في قلبها إلاَّ همُّ أمره ونجاته، وهذا القول مروي عن ابن عباس، والأظهر ـ والله أعلم ـ أن معنى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أن عقلها طار من فرط الجزع والغمِّ، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي كادت تصيح وا ابناه، وهذا القول ذكره القرطبي عن مالك رحمه الله، ولعله هو الأصح والأظهر.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهُ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ ﴾ التعبيرُ عنها بأخوّته دون أن يقال: لبنتها، للتصريح بمدار المحبة الموجبة لامتثال الأمر ﴿ قُصِّيهُ ﴾ أي ابتغي أثره وتتبعي خبره، قصصت الأثر تتبعته ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي أبصرته عن بُعد، وهم لا يشعرون أنها تقصه وتتعرف حاله، وأنها أخته.

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾ تحريم منع لا تحريم شرع، وذلك يحتمل أنه تعالى أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء، أو وضع لبن أمه لذة فلما تعودها كان يكره لبن غيرها ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل قصها أثره وقد دخلت بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾؟ أي لا يقصِّرون في إرضاعه وتربيته، روي أن هامان لمَّا سمعه منها قال: إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله، فقالت: إنما أردت وهم للملكِ ناصحون، فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله، فأتت بأمه، وموسى على يد آسية يبكي، وهي تعلِّله، فدفعته إليها، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال: من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلاَّ ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيِّبة الريح، وطيبة اللَّبن، لا أُوتىٰ بِصبي إلاَّ قبلني، فأقرَّه في يدها، وأجرى عليها العطاء بسخاء، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وذلك قوله تعالى.

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لا خُلْف فيه لمشاهدة بعضه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، فيرتابون فيه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي المبلغ الذي تكتمل فيه الرجولة، ويكمل فيه عقل الإنسان، وهو سنُّ الأربعين، ويروى أنه لم يُبعث نبيٌّ إلا على رأس الأربعين، والحكمة فيه ظاهرة لأنه إذا انتهى إلى أربعين تكامل عقلُه وأخذ في الازدياد ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي اعتدل قدره وعقله، فالأشدُّ: عبارةٌ عن كمال القوة البدنية، والاستواء: كمالُ القوة العقلية ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي علم العلماء والحكماء، لأن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يدل على أنه إنما أعطاه العلم، مجازاة على إحسانه، والنبوة لا تكون جزاءً على العمل.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي مصر من قصر فرعون ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ في وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه، قيل: كان وقت القيلولة ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ من أهل المدينة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي ممن شايعه على دينه، أي من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي مخالفيه ديناً من القبط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي سأله أن يغيثه بالإعانة، وشيعةُ الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي ضرب القبطي بجُمْع كفه

وقيل: الوكز ضرب في الصدر، وكزه من باب وعد، أي ضربه ودفعه، وقال الكسائي: وكزَه أي لَكَمه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتله، أصله أنهى حياته ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار، أو لأنه كان مأموناً فيما بينهم، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ، وإنما عدَّه من عمل الشيطان، وسماه ظلماً، واستغفر منه، جرياً على سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم، وإن كان من محقَّرات الصغائر ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتله ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ ذنبي ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في مغفرة ذنوب عباده، ورحمتهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا استعطافٌ، أي بحقّ إنعامك عليَّ اعصمني، فلن أكون معيناً لمن تؤدي معونته إلى الجرم، وفيه دلالةٌ على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يستغيثه برفع الصوت من الصراخ ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي بيِّنُ الغواية، تسببتَ لقتل رجلٍ، وتقاتل آخر اليوم!.

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ ﴾ موسى ﴿ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ أي لموسى وللإسرائيلي ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ الإسرائيلي ظاناً أنه عليه السلام سيبطش به، حسبما يوهمه تسميته إياه غَوِيّاً ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ قالوا: لمَّا سمع القبطي قول الإسرائيلي، علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون بقتل موسى، وقيل: قاله القبطي[1] ﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ أي ما تريد ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهو الذي يبطش، ويقتل، ولا ينظر في العواقب ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ بين الناس بالقول والفعل.

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ آخرها ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ أي يُسرع، وهو مؤمنٌ من آلِ فرعون ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي يتشاورون بسببك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أي يريدون قتلك، فأنصحك أن تخرج من هذا البلد بسرعة، فأنا لك ناصح أمين.

---

(١) القول الأول أظهر، وهو الذي حكاه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٣٩٤ حيث قال: ولمَّا عزم على البطش بذلك القبطي، اعتقد الإسرائيلي لخَوَره وضعفه، أن موسى إنما يريد قتله لمَّا سمعه يقول ﴿إنك لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ فقال له: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تقتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأَمْسِ﴾ فلقفها القبطيُّ من فمه، ثم ذهب إلى فرعون فأخبره بذلك ا هـ.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا ﴾ أي من المدينة ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق الطالبين ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي خلصني منهم، واحفظني من شرّهم.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ نحو مدين وهي مدينة شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ توكلاً على الله، وثقة بحسن توفيقه، وكان لا يعرف الطرق وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ ﴾ أي وصل ﴿ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ أي فوق شفيرها ﴿ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ جماعة كثيفة ﴿ يَسْقُونَ ﴾ أي مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ أي أسفل من مكانهم ﴿ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي تمنعان ما معهما من الأغنام من الماء، لئلا تختلط بأغنامهم، والذَّودُ: الطردُ والدفع ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام لهما حين رآهما وما هما عليه من التأخر والذود ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر؟ ولم لا تباشران السقي كدأب هؤلاء؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي

﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ حتى يُصدر الرعاةُ مواشيهم عن الماء، حذراً من مزاحمة الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ فلا نسقي حتى ينصرف الرعاة بمواشيهم.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ ﴾.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ رحمة عليهما لكونهما على الضعف والعفة، وإنما رضي شعيب عليه السلام لابنتيه بسقي الماشية، لأنَّ هذا الأمر في نفسه ليس بممنوع شرعاً، وأحوال أهل البدو، غير أحوال أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت حالة ضرورة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ وفيه دلالة على أنه سقى لهما في شمسٍ، وحر ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ أيْ أيَّ شيء أنزلتَه إليَّ من خير فأنا محتاج إليه، وحمله الأكثرون على الطعام بمعونة المقام.

﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ ﴾.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ قيل هي كبراهما، أي جاءته عقيب ما رجعتا إلى أبيهما، روي أنهما لمَّا رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامهما بطانٌ، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي ﴿تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ أي كانت على استحياء، تمشي مشية الحرائر، بخجل وحياء، وتنكير استحياء للتفخيم ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ أسندت الدعوة إلى أبيها، وعلَّلتها بالجزاء، لئلا يوهم كلامها ريبة، وفيه دلالة على كمال عقلها وعفتها، روي أنه عليه السلام أجابها، فانطلقا حتى أتيا دار شعيب عليه السلام

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي ما جرى عليه ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم، أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعثم، ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام، ويستظهر برأيه، لا ليأخذ بمعروفه أجراً، ألا يرى إلى ما رُوي أن شعيباً عليه السلام لما قدَّم إليه طعاماً، قال: إنَّا أهل بيت، لا نبيع ديننا بجبال الأرض ذهباً، ولا نأخذ على المعروف ثمناً، ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فتناول بعد ذلك.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها من موسى عليه السلام، روي أن شعيباً عليه السلام قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت ما شاهدت منه، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أفرس الناس ثلاث: بنت شعيب، وصاحب يوسف، وأبو بكر في عمر».

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ أي تكون أجيراً لي ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ في الخدمة ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي فهو من عندك بطريق التفضل، لا من عندي بطريق الإلزام عليك، وهذا من شعيب عليه السلام عرض رأي على موسى لا

إنشاء عقد ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام تمام العشر واستيفاء العمل ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن المعاملة، ولين الجانب، وإيفاء العهد.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ﴾ أي ذلك الذي قلته ثابت بيننا لا يخرج عنه واحد منا ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أي أكثرهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتُ﴾ وفيتك بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي لا عدوان عليَّ بطلب الزيادة على ما أدَّيتُ، ولا إثم عليَّ فيه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ والله على ما نقول من الشروط الجارية بينهما شاهدٌ وحفيظ، عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة أيَّ الأجليْن قَضى موسى عليه السلام؟ قلت: لا أدري، حتى أَقْدُمَ على حَبْر العرب فأسأ له فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته فقال: «قضى أكثرهما ـ يعني العشر ـ وأطيبهما؟ إنَّ رسول الله إذا قال فعل»[1] فالفقهاء استدلوا به على أن العمل قد يكون مهراً كالمال، وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز من الآية الكريمة.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٥/ ٢١٣.

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ أي فعقد العقد، وباشر موسى ما التزمه، فلما أتمَّ الأجل ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ نحو مصر قيل مكث موسى عشر سنين، ثم استأذن العود إلى مصر من شعيب عليه السلام ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ من يدلني على الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي عود غليظ وشعلة من النار والجذوة: الجمرةُ الملتهبة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفئون بها.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾ النار التي أبصرها، رأى النور في هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلابيب الأنس ﴿ نُودِىَ ﴾ أي أتاه النداء فخوطب بألطف خطاب ﴿ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أي جانبه الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام ﴿ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ ﴾ إنما وصف البقعة بكونها مباركة، لأنه حصل فيه ابتداء الرسالة والتكلم ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ بدل اشتمال من الشاطىء لأنها كانت ثابتة على الشاطىء ﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الجليل، وهذا وإن خالف لفظاً لما في طه، والنمل، لكنه موافقٌ له في المعنى المراد، وفي النمل: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ وقال في طه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾. فلا منافاة، لأنه تعالى ذكر الكل، إلاَّ أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء.

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ ﴾ أي ألقها من يديك، فألقاها فإذا هي حية تسعى

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في سرعة الحركة، مع عظم جثتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يلتفت، فقيل له ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لديَّ المرسلون.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي أدخلْ يدك في جيبيك، وفي طه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ وفي النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي عيب كالبرص ونحوه ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي يديك المبسوطتين استعارة من حال الطائر، فإنه إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن ضمَّهما إليه، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، لأن الغرض في أحدهما خروج اليد البيضاء، وفي الثاني زوال الخوف ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي من الخوف، فالخائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا، واليد ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ أي حجتان نيِّرتان ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله تعالى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابلتها، يعني ذلك القبطي، الذي قتله في مصر، لمَّا رآه يعتدي على الإسرائيلي.

﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ لأنه كان في لسانه حُبسة، إمَّا في أصل الخِلقة، وإمَّا لأجل أنه وضع الجمرة في فيه، عندما كان صغيراً في حجر فرعون ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ معيناً وهو اسم لما يُعان به، كالدِّفء اسمٌ لما يُدفأ به، والرِّدْءُ وِزان حِمْل: المعينُ ﴿ يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ بتلخيص الحق، وتقرير الحجة وتوضيحها، المفيد، لا مجرد قوله صدقتك ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ أي أخاف إن لم يكن لي أحد معين أن يكذبوني، لأنهم يكادون لا يفقهون قولي.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ ﴾ أي سنقوي ﴿ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ وكان هارون بمصر، وقوة الشخص على مزاولة الأمور بشدة اليد، وشدتها بشدة العضد ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا ﴾ أي تسلطاً وغَلَبة ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ باستيلاء أو محاجة ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ متعلق بمحذوف قد صرح في مواضع أخرى أي اذهبا بآياتنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ أي الغلبة والنصر لكما ولأتباعكما على فرعون وقومه، وقلب العصا كما أنها معجزة، فهي أيضاً تمنع وصول ضرر فرعون إلى موسى، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة، زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما، والمراد بالغلبة هنا: الحجة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ ﴾ أي واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام، والمراد بها العصا، واليد ﴿ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي سحر مختلق، موصوف بالافتراء ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ادعاء النبوة واقعاً في أيامهم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ يريد به نفسه عليه السلام ﴿ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ ﴾؟ أي العاقبة المحمودة، وهي الجنة قال الله تعالى: ﴿أولَئِكَ لَهُمْ عُقبىٰ الدَّارِ﴾ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي لا يفوزون بالهدى في الدنيا، وحسن العاقبة في العقبى.

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ قاله اللعين بعد ما جَمَع السحرة، وتصدَّى للمعارضة، فكان من أمرهم ما كان، وكانت عادة اللعين متى ظهرت حجة موسى عليه السلام، أن يتعلق في دفع تلك الحجة، بشبهة يروِّجها على أغمار قومه، كقوله: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾؟. على أنه كان عارفاً بالله تعالى: ﴿ فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي اصنع آجرّاً، وأول من اتخذ الآجر فرعون ﴿ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾ أي قصراً رفيعاً ﴿ لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ كأنه توهم أنه لو كان موجوداً لكان جسماً في السماء، يمكن الرقي إليه، والطُّلوعُ، والاطِّلاعُ: الصعود ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ في دعواه أن له إلهاً، وأنه أرسله إلينا رسولاً، وقد تناقض المخذول، فإنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهاً، قال أهل السير: جَمَع هامان العمال، وطبخ الآجر والجص، وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه، حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، وأراد الله أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه سقط على العمال فهلكوا جميعاً.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ في أرض مصر ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ بغير استحقاق ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث والجزاء.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ ﴾ الذين بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات ﴿ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ وفيه تفخيم شأن الأخذ، كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم، وطرحهم في اليم أي البحر، والفرض منه تصوير أنَّ كل مقدور وإنْ عَظُم، فهو حقير بالقياس إلى قدرته تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؟ تنبيهاً للناس ليعتبروا بها.

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ أي صيرناهم في عهدهم ﴿ أَئِمَّةً يَدْعُونَ ﴾ الناس ﴿ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها، من الكفر والمعاصي، أي قُدوةً يقتدي بهم أهل الضلال ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي طرداً وإبعاداً من الرحمة، ولعناً من اللاعنين، حيث تلعنهم الملائكة والمؤمنون، خَلَفاً عن سلف ﴿ وَيَوْمَ

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المطرودين المبعدين عن رحمة الله عز وجل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هم أقوام نوح، وهود، وصالح، ولوط عليهم السلام، والتعرض لبيان إيتائها بعد إهلاكهم، للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه، فإن إهلاك القرون الأولى، من موجبات اندراس معالم الشرائع وأحكامها المؤدي إلى اختلال نظام العالم، وحاجته إلى نظام جديد، كأنه قيل: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة إلى إيتائها ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أنواراً لقلوبهم، تُبصر بها الحقائق، وتُميَّز بها بين الحق والباطل ﴿وَهُدًى﴾ أي هدايةً إلى الشرائع والأحكام ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ليكونوا على حالٍ يُرجى منه التذكر.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ شروع في بيان أن إنزال القرآن الكريم، واقع في زمان شدة مساس الحاجة إليه، وقد صدر بتحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله، ببيان أن الوقوف على ما فُصِّل من الأحوال، لا يتسنى إلا بالمشاهدة، أو التعلم ممن شاهدها، وحيث انتفى كلاهما، تبيَّن أنه وحي من علام الغيوب لا محالة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ أي وما كنتَ يا رسولَ الله بجانب الجبل الغربي، الذي وقع فيه الميقات ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا أمرنا له بالنبوة وبالوحي ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ من جملة الشاهدين للوحي،

وهم السبعون المختارون للميقات، حتى تشاهد من أمر موسى ما تشاهد، فتخبر به الناس.

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أي ولكنْ خلقنا بين زمانك، وزمان موسى، قروناً كثيرة ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ وتمادى الأمد، فتغيرت الشرائع والأحكام، والأخبار، واندرست العلوم، فاقتضى الحال لتشريع جديد، فأوحينا إليك، فحُذف المستدركُ، اكتفاءً بذكر ما يوجبه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا ﴾ أي مقيماً ﴿ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ أي تقرأ عليهم بطريق التعلم منهم ﴿ ءَايَٰتِنَا ﴾ الناطقة بالقصة ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إياك وموحين إليك تلك الآيات، ولولا ذلك لما علمتها أنت ولا قومك.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي وقت ندائنا لموسى، وتكليمنا إياه ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي ولكنْ أرسلناك بالقرآن، لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ أي لتخوِّف أهل مكة وكفارها عذاب الله ﴿ مَّآ أَتَىٰهُم ﴾ صفة لقوماً أي لم يأتهم ﴿ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمس مائة وخمسون سنة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتعظون بإنذارك.

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بما اقترفوا من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُواْ﴾ عطف على أن تصيبهم، أي فيقولوا عند ذلك ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ أي هَلاّ ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ مؤيداً من عندك بآيات ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها، والمعنى: لولا قولهم هذا، عند إصابة عقوبة جناياتهم، ما أرسلناك، لكنْ لمَّا كان قولهم ذلك محقَّقاً، أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ أهل مكة ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو القرآن العظيم المنزل عليك يا محمد ﴿قَالُواْ﴾ تعنتاً واقتراحاً ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتاب المنزَّل جملة وهو التوراة ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ﴾ ردٌّ عليهم، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً مَحْضاً، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق، أي ألم يكفروا ﴿بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذا القول، كما كفروا بهذا الحق ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هما يعنون ما أُوتي رسولُ الله ﷺ، وما أوتي موسى عليه السلام ﴿تَظَـٰهَرَا﴾ تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر، وذلك أنهم بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود، فسألوهم عن شأنه ﷺ، فقالوا وجدناه في التوراة بنعته، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود، قالوا ذلك ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ﴾ تصريح بكفرهم بهما، وقرىء (ساحران).

﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ ﴾ ممَّا أوتياه من القرآن، والتوراة ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب للأمر، أي إن تأتوا به أتَّبعه، وهذا من الشروط التي يراد به الإلزام، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين، أمرٌ بيِّنُ الاستحالة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنهما سحران مختلَقان، وفي كلمة ﴿إِنْ﴾ مع امتناع صدقهم، نوعُ تهكمٍ بهم.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ ﴾ أي فإن لم يفعلوا ما كلَّفتهم من الإتيان ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ﴾ الزائغة، من غير أن يكون لهم تمسك بشيء ما، إذ لو كان لهم ذلك لأتوه، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ استفهامٌ إنكاري أي لا أضل ممن اتبع هواه، وتقييد اتباع الهوى، بعدم الهدى من الله، لزيادة التقريع ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى والشهوات، والإعراض عن الآيات الهادية البيِّنات.

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ أي أنزلنا القرآن عليهم، متواصلاً بعضه إثْرَ بعض، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ومتتابعاً، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعِبَراً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنوا بما فيه.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل إيتاء القرآن ﴿ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأشباهه، قال ابن

عباس: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب، آمنوا برسول الله ﷺ وصدقوا في دعوى الإيمان.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي الحق الذي كنا نعرف حقيقته ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة أي مؤمنين بأنه سيبعث.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمَنَ بنبيِّه، وآمنَ بمحمد ﷺ، والعبدُ المملوك إذا أدَّىٰ حقَّ الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤُها فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها ثم تزوجها، فله أجران»[1] ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بصبرهم وثباتهم على الإيمان بالرسول والقرآن ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي ويدفعون بالطاعات المعصية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في العتق ٥/ ١٢٦ ومسلم رقم ١٥٤ في الإيمان.

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ ﴾ القول القبيح، وذلك أن المشركين كانوا يسبُّونهم ويقولون: تبّاً لكم، تركتم دينكم ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي عن اللغو تكرماً كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغوِ مَرُّوا كِرامَاً﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ للشاتمين ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا طريقتنا من الحلم والصفح، ولكم طريقتكم من الوقاحة والسفاهة، وكل على طريقته ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق المتاركة، وليس بتسليم وتحية، بل هو براءة ومفارقة، قال الزجاج، لم يريدوا التحية وإنما أرادوا المتاركة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ وقال بعضهم: نُسخ ذلك بالأمر بالقتال، وهو بعيد، لأن ترك المسافهة مندوبٌ، وإن كان القتال واجباً ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لا نبغي صحبتهم ولا نجازيهم بالباطل.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ هداية موصلة إلى البغية لا محالة ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من الناس، ولا تقدر أن تدخله في الإسلام، وإن بذلت فيه غاية المجهود، وقال تعالى: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم﴾ ولا تنافي بينهما، فإن الذي أضافه إليه الدعوة والبيان، والذي نفى عنه هداية التوفيق، وشرح القلب للإسلام، وهو نور يُقذف في القلب، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتَاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه ممن يستأهل فيدخله في الإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي المستعدين لذلك، عن أبي هريرة قال: «﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحبَبْتَ﴾ الآية نزلت في رسول الله ﷺ، حيث راود عمَّه أبا طالب على الإسلام» والجمهور على ذلك، فإنه لما احتضر جاءه رسول الله ﷺ وقال: يا عم: قل: (لا إله إلا الله) كلمة أحاجُّ

بها لك عند الله، قال له: يا ابنَ أخي، قد علمتُ أنك صادق، ولكني أكره أن يقال فزع عند الموت.[1]

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾ نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل حيث أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، لكنا نخاف إنِ اتبعناك وخالفنا العرب، أن يتخطفونا من أرض مكة، فردَّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا ﴾؟ أي ألم نعصمهم ونجعل بلدهم حرماً ذا أمنٍ لحرمة البيت الحرام، الذي تتناحر العرب حوله، وهم آمنون؟ ﴿ يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ﴾ أي يجمع ويحمل إليه ﴿ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ من كل أوب ﴿ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فإذا كان حالهم ما ذُكر، وهم عَبَدةُ أصنام، فكيف يخافون التخطف إذا ضمُّوا إلى حرمة البيت العتيق، حرمة التوحيد؟ وكيف يكون الحرم أمناً لهم في حال كفرهم، ولا يكون أمناً لهم في حال إسلامهم؟ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أي جهلة لا يتفطنون له، ولا يتفكرون.

﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ ﴾ أي وكثير من أهل القرى كانت حالتهم كحال هؤلاء في الأمن، وسَعَة العيش والدَّعَة، حتى أشركوا فدمَّرنا عليهم، وخرَّبنا ديارهم، فالإصرار على الكفر، يزيل النعم، لا

(١) انظر صحيح البخاري ٨/ ٥٠٦ فقد ذكر القصة كاملة، وأن أبا طالب أبى أن يقول لا إله إلا الله، وفيه نزلت ﴿إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

الإقدام على الإيمان ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاوية بما ظلموا ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة، يوماً أو بعض يوم، ولم يبق من يسكنها إلا قليلاً، من شؤم معاصي المهلكين ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي ما صح وما استقام في سنته تعالى المبنية على الحِكَم، والمصالح، أن يهلك القرىٰ قبل الإنذار، بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي في أصلها وعاصمتها، وخصَّ الأم أي العاصمة ببعثة الرسل، لأنه يبعث للأشراف وهم سكان المدن، ولكون أهلها أفطن وأنبل ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ﴾ الناطقة بالحق، ويدعو إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لإلزام الحجة، وقطع المعذرة، بأن يقولوا: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتبع آياتك؟ والالتفاتُ إلى نون العظمة لتربية المهابة، وإدخال الروعة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ استثناء مفرَّغ من أعم الأحوال، أي وما كنا مهلكين لأهل القرى، بعدما بعثنا رسولاً يدعوهم إلى الحق، في حال من الأحوال، إلا حال كونهم ظالمين، بتكذيب رسلنا، والكفر بآياتنا.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ من أمور الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ﴾ أي فهو شيء شأنه أن يُتمتع به، ويتزين أياماً قلائل ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب

﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك، لأنه لذة خالصة عن شوائب الألم ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبديٌّ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ هذا الأمر الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي بالجنة، فإن حسن الوعد بحسن الموعود، فهو مدركه لا محالة، لاستحالة الخُلْف في وعده تعالى ولذلك جيء بالجملة الاسمية، المفيدة لتحققه البتَّة ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوب بالآلام، منغَّصٌ بالأكدار، مستتبع للتحسر على الانقطاع ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ ثم أحضرناه يوم القيامة للحساب والعذاب، وتخصيصُ لفظ ﴿مُحْضَرِينَ﴾ بالذين أُحضروا للعذاب، أمرٌ عُرف من القرآن، وصار مقروناً بالعذاب الإلٰهي.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي الله الكفار نداء توبيخ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ أنهم شركائي عبدتموهم من دون الله؟.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم شركاؤهم من الشياطين، ورؤساؤهم الذين أطاعوهم في كل ما أمروهم به، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ القَولُ﴾ أنه ثبت مقتضاه بدخول جهنم بقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنَ الجنَّةِ وَالنَّاسِ أجْمَعينَ﴾[1] ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ أي ما أكرهناهم على الغي، وإنما أغويناهم بالوسوسة والتسويل، لا بالإلجاء والإكراه، فغووا باختيارهم ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ منهم، ومما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم.

﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ إما تهكماً بهم أو تبكيتاً لهم ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي الأصنام لتخليصكم من العذاب ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ لفرط الحيرة ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ قد غشيهم ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ لوجه من الوجوه، لَمَا لَقُوا ما لقوا من الكرب والبلاء.!

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؟ الذين نهوهم عن الشرك، أي ماذا أجبتم رسلي؟ هل صدَّقتموهم أم كذَّبتموهم؟.

﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي فصارت كالعَمَىٰ عنهم لا تهتدي إليهم، وأصله فعمُوا عن الأنباء، وقد عكس للمبالغة، أي خفيت عليهم الحجج، وأظلمت عليهم الأمور، فهم حيارىٰ واجمون، لا يعرفون ما يقولون ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضُهم بعضاً عن الجواب، لفرط الدهشة والفزع.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾.

---

(١) سورة هود، آية: ١١٩.

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ من الشرك ﴿ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ أي الفائزين بالمطلوب عنده تعالى، و «عسى» للتحقيق[1] على عادة الكرام، أو للترجي من قِبَل الطالب، أي راجياً الفلاح من ربه الكريم.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أن يخلقه ﴿ وَيَخْتَارُ ۗ ﴾ ما شاء اختياره من غير إيجاب عليه، ولا منع له أصلاً ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ أي ما كان لأحدٍ من العباد اختيار، فهو الخالق المختار، والواحد القهار، فكما أن الخلق إليه، فكذلك الاختيار له ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهاً له أن ينازعه أحد، أو يزاحم اختياره، نزلت هذه الآية، جواباً لقول المشركين، حين قالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[2] ؟.

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي هو جلَّ وعلا العالم بما تخفيه صدورهم، من الكفر والعداوة للرسول ﷺ ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن فيه ﷺ.

---

(١) قال ابن كثير ٣/٤٠٨: وعسى من الله موجبة، فإنَّ هذا واقع بفضل الله ومنَّته لا محالة.
ا هـ أقول: الترجي الوارد في القرآن بمنزلة التحقق، لأنه وعدٌ كريم من رب رحيم، وهو جلَّ وعلا لا يخلف وعده.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣١.

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ ﴾ أي المستحق للعبادة وحده ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا أحد يستحقها إلا هو سبحانه ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ لأنه المُولِي للنِّعم كلِّها، عاجلها وآجلها، على الخلق كافة، يحمده المؤمنون في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة بقولهم: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ ابتهاجاً بفضله، والتذاذاً بحمده ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أي القضاء النافذ في كل شيء ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث إلى حكمه وقضائه.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تقريراً لما ذُكر ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ أي دائماً من السَّرْد، وهو المتابعةُ والاطِّرادُ، والميم زائدة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثةٌ سَرْدٌ، وواحدٌ فَرْدٌ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور والضياء؟ وعليه يدور أمرُ التبكيت والإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[1] ونظائره ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾؟ هذا الكلام الحقَّ، سماع تدبر واستبصار، حتى تذعنوا له، وتعملوا بموجبه، فالمعنى: أخبروني من يقدر على هذا غير الله تعالى؟.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة تبارك الملك، آية: ٣٠.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أي جعل النهار دائماً مستمراً دون انقطاع، في وسط السماء ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ للاستراحة من متاعب الأشغال، ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه، لكونه مقصوداً بذاته ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ هذه المنفعة؟ وإنما قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ و ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ لأن الغرض من ذلك الانتفاعُ، فلما لم ينتفعوا نُزِّلوا مرتبة من لا يسمع ولا يبصر.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتعرفوا نعمة الله في ذلك، فتشكروه عليها.. جمع تعالى الليل والنهار، ثم قال ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فأعاد السَّكَن إلى الليل، وطلب الرزق إلى النهار، بطريقة «اللفِّ والنشر المرتب»، وهذا من لطيف علم البديع

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريع إثر تقريع، للإشعار أنه لا شيء أجلب لغضب الله، من الإشراك بالله.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ عطف على يناديهم، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقق، أي أخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ أي نبياً يشهد

عليهم بما كانوا عليه، أو هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ﴿فَقُلْنَا﴾ لكل أمة من تلك الأمم ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ يومئذٍ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي غاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الآلهة المزعومة، من الأوثان والأنداد.

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ﴾ قيل كان ابن عم موسى عليه السلام وأعلم بني إسرائيل، ولكنَّه نافق كما نافق السامري ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي من جماعته وعشيرته ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي تطاول عليهم بالكبر والعلوّ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي الأموال المدخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي مفاتيح صناديقه، وهو جمع مِفْتح بالكسر، وهو ما يُفتح به، والمعنى: آتيناه من الكنوز ما إن مفاتيح خزائنه ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ ناء به الحملُ: إذا أثقله، والعصبةُ الجماعةُ الكثيرة، أي يثقل على الجماعة أصحاب القوة، حمل مفاتيح خزائنه، لكثرتها وثقلها، فضلاً عن حمل الخزائن والأموال ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تبطر، والفرحُ في الدنيا مذمومٌ مطلقاً، لأنه نتيجة جهالة حال الدنيا، أن ما فيها من اللذة زائل لا محالة، والمراد بالفرح هنا: فرح البطر والأشر، والتكبر على عباد الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي بزخارف الدنيا، والذين لا يشكرون الله على فضله وإنعامه.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ من الغنى والثروة ﴿ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ أي ثواب الله، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، بأن تتصدق به على الفقراء، وتصل الرحم، وتصرفه إلى أبواب الخير ﴿ وَلَا تَنسَ ﴾ أي لا تترك ترك المنسيّ ﴿ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهو أن تحصّل منها ما يكفيك ﴿ وَأَحْسِن ﴾ إلى عباد الله ﴿ كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ بما أنعم عليك ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ نهى عما كان عليه من الظلم والبغي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ مجيباً لناصحه ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ كأنه يريد الردَّ على قولهم: ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليك﴾ أي إنما فُضِّلتُ به على الناس، بالمال والجاه، لمعرفتي بوجوه المكاسب، وبسبب ذكائي ومهارتي ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ ﴾ توبيخ له من جهته تعالى، على اغتراره بقوته، وكثرة ماله فالمعنى: ألم يقرأ في التوراة، ولم يعلم ما فعل الله بأضرابه، من أهل القرون السابقة، حتى لا يغترَّ بما اغترُّوا به؟ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي لا يُسألون سؤال استعلام، بل يعذبون بها بغتة، فالله عزَّ وجلَّ عالم بجرائمهم، ولا حاجة أن يسألهم عنها، كما قال سبحانه: ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ أي فخرج عليهم في زينته، بأبهى الحلل، وأجمل الخيل، مع خدمه وحشمه، في موكب حافل باهر ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ جرياً على الرغبة في السعة واليسار ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ أي ياليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أعطيه قارون ﴿ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ تعليل لتمنيهم وتأكيد له، أي ذو نصيب وافر من الدنيا، ومكانة عظيمة من الجاه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي العقلاء من أهل العلم والفهم، الذين لا تخدعهم المظاهر البرَّاقة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء شاع في الزجر عما لا يرتضى، أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا التمني والكلام الفارغ ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي ثوابه تعالى في الآخرة ﴿ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ فلا يليق بكم، أن تتمنوه غير مكتفين بثواب الله تعالى ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي هذه المنزلة والفضيلة ﴿ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ على أمر الله، والمعرضون عن زينة الدنيا وشهواتها.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فإنه لمَّا أَشِر، وبَطِر، وعتا، خسف الله به وبداره الأرض، جزاءً على عتوّه. وطغيانه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ ﴾ أي جماعة مشفقة ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بدفع العذاب عنه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي الناجين من العذاب، الممتنعين منه، لأنه لا نصير لهم ولا معين.

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ وصار ﴿ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ ﴾ منزلته من الدنيا ﴿ بِٱلْأَمْسِ ﴾ منذ زمان قريب، ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ﴾ «وَيْ» كلمة تنبيه على الخطأ والندم، يستعملها النادم بإظهار ندامته، وكأن للتشبيه، والمعنى: ما أشبه هذا الأمر، يعني أن القوم قد تنبَّهوا على خطئهم في تمنيهم، وتندَّموا على ذلك ﴿ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء، ويضيِّق الرزق على من يشاء، يفعل كل واحد منهما بمحض مشيئته، لا لكرامةٍ توجب البسط، ولا لِهوَانٍ يقتضي القبضَ ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي لولا أن الله لطف بنا بعدم إعطائه إيَّانا ما تمنيناه ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ كما خَسف بقارون ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لنعمة الله تعالى، أي اعجبوا من فعل الله أيها القوم، فإنه لا يفوز ولا يظفر بالسعادة، الكافرون.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم، كأنه قيل: تلك التي سمعتَ خبرها، وبلغك وصفها ﴿ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي غلبة وتسلطاً ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ أي ظلماً وعدواناً على العباد كدأب فرعون وقارون ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ ﴾ الحميدة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يتقون ما لا يرضاه الله، من الأفعال، والأقوال.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي مثل ما كانوا يعملون، أخبر تعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه ورحمة، وأن الحسنة تضاعف أضعافاً كثيرة، مبالغة في التحذير من عمل السيئات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ ﴾ أي أوجب وأنزل ﴿ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد تلاوة ﴿ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ وتبليغه، والعملَ به، ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي لرادك بعد الموت إلى معادٍ، تمتد إليه أعناق الهمم، وترنو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود، الذي وعدك به، وقيل: هو مكة المعظمة، فقد نزلت عليه في مهاجره، حين بلغ الجُحفة، وذلك أقرب وهو قول أكثر المفسرين[1] ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ﴿ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وما يستحقه من العذاب والإذلال، يعني بذلك نفسه ﷺ، والمشركين، وهو جواب لكفار مكة، لما قالوا للرسول ﷺ: إنك لفي ضلال مبين، وتقرير للوعد السابق.

---

(١) هذا وعدٌ من الله عزَّ وجلَّ بفتح مكة، وعودة المصطفى ﷺ إليها بعد أن هاجر منها، وهذه الآية من أعلام النبوة، فإنه خبرٌ عن غيب، وقد وقع كما أخبر عنه القرآن، حيث رجع رسول الله ﷺ إلى مسقط رأسه، ظافراً منتصراً بعد سنوات قليلة من هجرته، والمعنى: إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد، لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وهذا القول مروي عن ابن عباس والضحاك، وهو الأشهر والأظهر، والله أعلم.

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي سيردُّك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب، وما كنت تطمع أن تنال النبوة، وينزل عليك القرآن ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ ﴾ ولكن ألقى إليك رحمة منه: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي معيناً للكافرين بمداراتهم، ولا إجابة إلى طلباتهم.

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ ﴾ أي الكافرون ﴿ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ عن قراءتها والعمل بها ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ ﴾ وفُرضت عليك ﴿ وَٱدْعُ ﴾ الناس ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ ﴾ أي إلى عبادته وتوحيده ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بمساعدتهم في الأمور.

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ هذا وما قبله للتهييج، والإلهاب، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته ﷺ لهم، روي عن ابن عباس أنه قال: «الخطاب في الظاهر للرسول ﷺ، والمراد به أهل دينه» والعصمة لا تمنع أن ينتهى عن القبح من لا يمكن صدوره عنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ ﴾ أي إلا ذاته جلَّ وعلا، فإنَّ كل ما عداه كائناً ما كان، عرضةٌ للهلاك والفناء ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ عند البعث للجزاء لا إلى غيره، والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص»

* * *